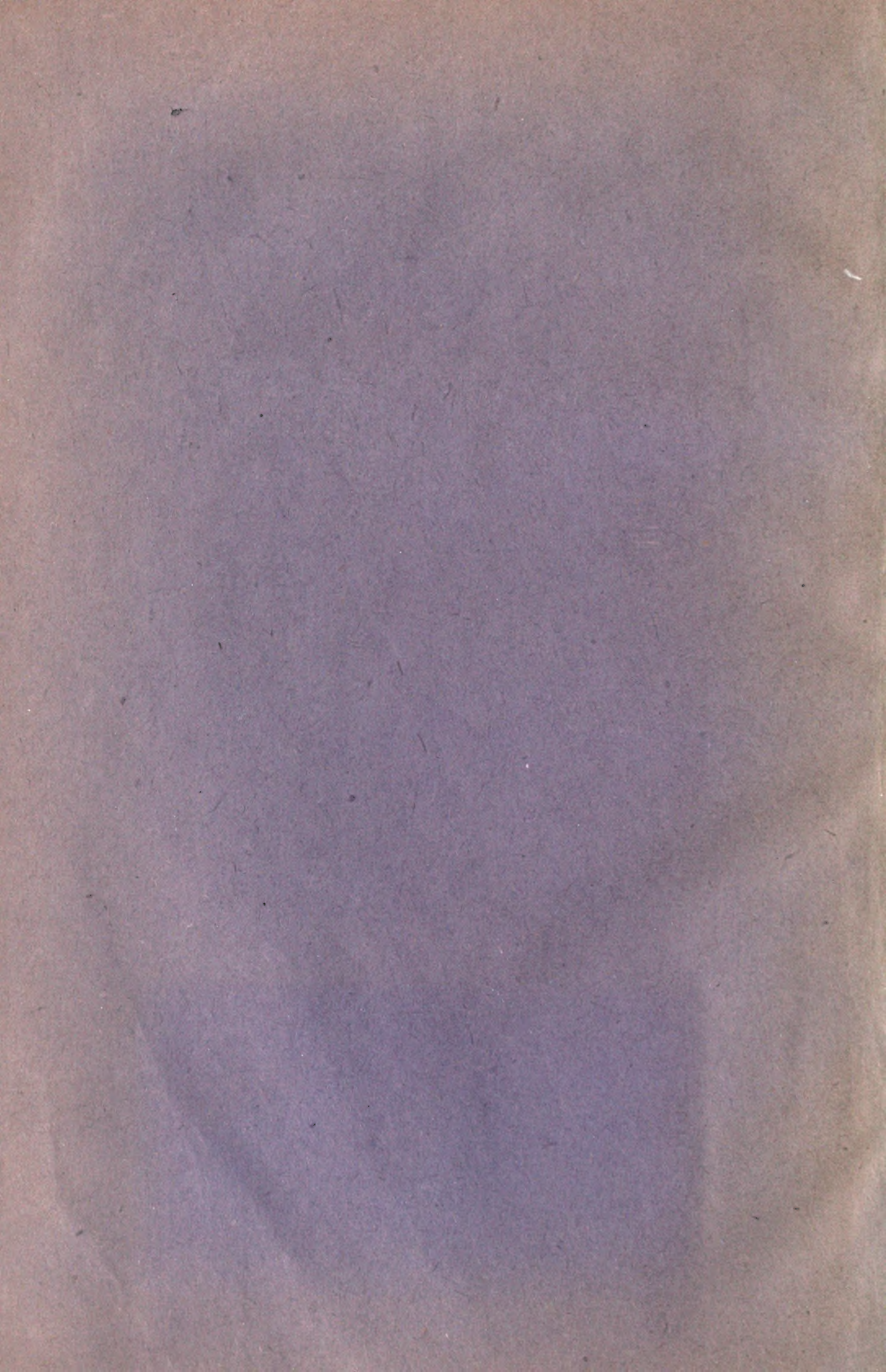
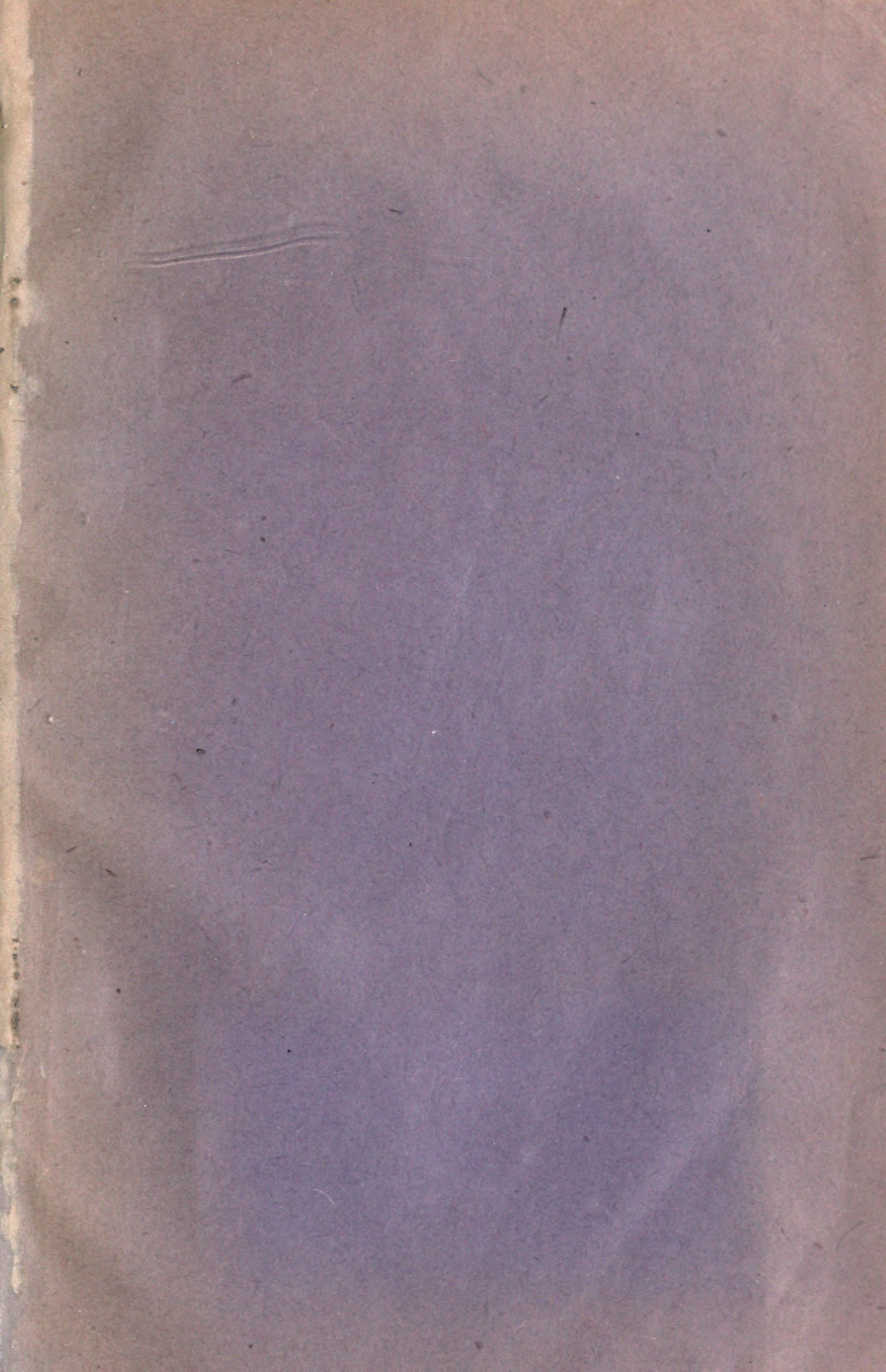
ابراهيم يوسف





فهرست

صحيفة

صحيفة

القصائد



﴿ وهى مجموعة ما كتبته جريدة المؤيد عن اللورد كرومر وسياسته ﴾

(وخطابه الوداعي ورد المؤيد عليه)

﴿ ملتزمى طبعها ﴾

عبد الله حسين وصالح شكري

بسم الله الرحمن الرحيم

نحمدك اللهم يا معز يا مذل يا قابض يا باسط أنت مديل الدول ورافع شأن الامم ومحيي الرمم . سبحانك لا علم لنا الا ما علمتنا . علمتنا بالقلم ما لم نعلم . وصلي اللهم على رسولك المصطفى علم الهدى والمنقذ من الردى وعلى اخوانه المرسلين وآل كل وصحبهم أجمعين .

وبعد فقد رأينا اعجاب الامة المصرية بخطة جريدة المؤيد الفضلى فى معالجة المواضيع السياسية الوطنية وماأظهره عقلاء الشعب من دلائل الرضى عن مقالات هذه الجريدة الوطنيـة خصوصا في أخريات أيام جناب اللورد كرومر في مصر وبعد استقالته وقد رأينا أن الناس يودون الحصول على بعض تلك المقالات فى مجموعة تحفظ فى مكاتبهم ويرجع اليها في الاعتماد على رأى مستقيم وفكر صحيح فاستأذنا سعادة الوطنى الفاضل الهمام الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد في جمع بعض مقالاته وتفضل حفظه الله بالاجابة فأصدرناها كما ترى فى هذه المجموعة تحقيقا لرغبة القراء الكرام . حقق الله الآمال بمنه وكرمه .

ملتزمى الطبع

مصر فى يونيو سنة ١٩٠٧ — عبد الله حسين وصالح شكري

السياسة الضعيفة العنيفة

يستغرب القراء أن نجمع بين هذين الوصفين لموصوف واحد لما يظهر من أن العنف يكون مع القوة وهي لا توجد مع الضعف في شيء غير متعدد ولو بالاعتبار

أما نحن فنقول ان العنف قد يكون مظهراً كبيرا من مظاهر الضعف وخصوصا في سياسة الامم وحكمها . كصفة الكبرياء للمتكبر فانها لا تكون في الشخص الا حيثما يذهب شيء من فضائله ومزاياه فيحل الكبر بهذا الفراغ ليكمل صاحبه علاء في زعمه

وخذ الشراسة مثلا في بعض الناس فانها توجد حيثما يعوز المرء شيء من مزايا حسن النظر وضبط النفس وسعة الصدر فتحل الشراسة محله . ولذلك تجد اضيق الناس صدراً من يسب غيره وأقلهم مقدرة على الاقناع الخطابى من يصيح في وجه محدثه ليحمله على قبول رأيه

كذلك العنف وقوة البطش في حكم الامم يحل محل حسن السياسة وقدر المسؤلية قدرها في كل عمل . وقلما ترى سياسيا محنكا قادرا على تصريف الحوادث بالحسنى والاستنتاج منها بقدر ماتعطيه مقدماتها الا كان عادلا حليما بعيدا عن فعال الظالمين

***

لا نذهب بالقارىء بعيدا بضرب الامثال عن الموضوع الذى نحن بصدده . فهذه مصر يدير دفة سياستها وادارتها المحتلون من الانكليز منذ ربع قرن وهم يقلبونها على كل وجه من وجوه النظام محوا واثباتا وتبديلا وتعديلا ورفعا ووضعا فلم تكن أمة ألين عريكة وأطوع فى يد العامل منها . تشكر حسن الصنيع وتصبر على الاساءة ولو كان اللورد كرومر في غير مصر لمج السياسة وملّ أن يقيم في قطر واحد مثل هذا الزمن الطويل حتى قيل انه فضل مرارا أن يكون قنصلا جنرالا فى مصر عن أن يكون سفيرا لدولته في أعظم العواصم الاوروبية بل فضل هذه الوظيفة على أن يكون عضوا فى وزارة الاحرار ولو شاء ذلك لحفظ له مركزه في الوزارة الحاضرة

وماذلك الا لانه في مصر يعمل كالملك المطلق الارادة لا يشوش عليه مشوش من المراقبات الشديدة ولا ينغص عليه منغص من الحوادث المزعجة . قضى كل هذا الزمن طيب الخاطر

هادىء البال قرير العين بهذا السلطان القوى الذى يدير به دولاب الحكومة المصرية وقد لقى من الامة مهادا طريا ومن أمير البلاد مسالمة مرضية ومن الوزراء استسلاما ليست العبودية أوفى منها في العبد لسيده

ولكن اللورد فى حكومته كان ككل حاكم مطلق يحتاج الى الاعوان الذين يساعدونه. ومن عادة الملوك أن يختاروا فى كل دور من أدوار حياتهم الاعوان الذين يوافقون الظروف . ففى دور كان مع اللورد كرومر أعوان مثل الجنرال غرنفيل في الحربية والكولونيل منكريف في الاشغال والسير سكوت فى الحقانية والسير ادجار فنسنت أو بالمر وملنر أو غورست فى المالية ثم الداخلية

وفي دور كان معه المستر ماتشل في الداخلية والمستر كور بيت في المالية والمستر دانلوب في المعارف وهلم جرا

ولا خلاف في أن هؤلاء يختلفون كفاءة كما أنهم يختلفون استقلالا في الرأى مع اللورد. بل مما لا خلاف فيه أن اعوان جنابه فى هذا العهد كانوا فى وظائف مصرية صغيرة أو صغيرة جدا ثم ترقوا بحسن عناية اللورد وعظيم رعايته فله عليهم يد الفضل أكثر مما لهم عليه من يد المعونة الكبرى

والزمن الذى كان السير سكوت لا يقبل كل رأى يشار عليه به من الوكالة الانكليزية فى التشريع والقضاء . ويقول ان النظامات القضائية لا تحكي بناء القناطر وتشييد الجسور قد ذهب بذهابه . جاء الزمن الذى يضع فيه أساس الادارة الداخلية في البلاد كلها و يقول بضرورة الانقلاب العام واحلال العنف فيها محل العدل من كان قبل بضع سنوات ضابطا عسكريا صغيرا يؤدى وظيفة عسكرية محضة

نحن لا نطعن على كفاءة عامل ولكن نقول بالاجمال ان الذين يتولون ادارة البلاد الآن أعوانا للورد كرومر تنقصهم تجارب كثيرة وخبرة كبيرة بأحوال البلاد حتى يكونوا بعد ذلك منظمين مصلحين ولا يمكن أن يكون اللورد عاملا بذاته في كل مصلحة لان المراقبة العامة تشغله عن المراقبة الخاصة . فاذا حدثت حادثة غير منتظرة في البلاد حالت قلة الخبرة بينهم و بين تكييفها بحقيقتها فأعطوها غير حكمها و بنوا علي حدوثها تغييرا وتبديلا

في النظامات قد يبعدان بها عن محجة الصواب بعدا شاسعا . وكلما سأل جناب اللوردواحدا من أولئك الاعوان عن سبب حادث ما أجابه بقدر مايعلم بالرأى الفطير فأمره بنـاء عليه بمـا يأمر الطبيب ممرضا يخطئ فى أعراض سير المرض والطبيب غير مسئول

فالبلاد سائرة والحالة هذه بآراء أولئك الاعوان على غير خبرة كافية منهـم و بالاوامر المطاعة من جنـاب اللورد كرومر . وحيث اختلفت حواس السمع والبصر والبيان اختلفت نتائج الحـكم على الاشياء

هذا هو سبب الاختباط الحاصل الآن في ادارة البلاد وعيوب هـذه الادارة تزداد وضوحا يوما بعد يوم فيوجد فى عناصر السياسـة المصرية الآن فراغ كبير من حسن النظر والحكمة هو الذى يراد سده بالعنف والخروج عن منهج الدستور الذى تحكم به البلاد. ومن سوء الحظ أن هذا الدسـتور وجـد ناقصا فى ذاته نقصا يقولون ان طبيعة البـلاد اقتضته وللورد كرومر فى هذا المعنى فلسفة طويلة عريضة فى عدة أبواب من تقريره الاخـير حكم فيها حكما قاسيا على استعداد الامة وقلة استعدادها للنظامات الدستورية الكاملة

وأضف الى ذلك الاختباط وسائط شـتى تحيط بالوكالة الانكليزية وكبار موظـفي الانـكليز جعلت همها تأويل كل حادث في مصر بمـا يوسع مسافة الخلف بينهـم و بين المصريين وتحريف كل كلمـة تكتب فى الصحف المصرية بمـا يسوء سمعه حتى تبقى لهم وظيفتهم على الدوام مصدر نعمة وخير

فلو وجد محللون كيماويون سياسيون خبيرون يحللون عناصر الحوادث التى تحصل في مصر و يكون لها سوء تأثير عند المحتلين تحليلا حقيقيا يردون به كل جوهر الى أصله وكل معلول الى علته وكل نتيجة الى مقدمتها ؟ ـ . ولو وجد من الانكليز في وظائفهم من لا يخدعهم تحريف المحرفين ـ والمحتلون أكثر الناس انخداعا بزخارف المموهين كما قال المرحوم الشيخ محمد عبده مفتى الديار المصرية سابقا ـ لما انعكست آية ما بين أبناء البلاد وأولئك المسيطرين

انعكست تلك الآية الى حـد أن يظنوا ان حادثة دنشواى أثر من آثار التعصب الدينى القائم الآن بين المصريين والاوروبيين وهو ظن باطل ان لم يكن خطأ مقصودا بالذات لتخفيف شناعة مافعله رجال الاحتلال فى هذه الحادثة لدى الرأى العام الانكليزى

والقارئ لما نشرناه اليوم نقلا عن جريدة التيمس يرى كيف كان مركز ناظر الخارجية حرجا فى البرلمان وهو يسئل عن نقط كيفية تنفيذ الحكم على الصورة الفظيعة التى حصل بها فلا يجد له جوابا سوى أن يعد بالجواب فيما بعد على هذه النقط . سألوه هل حقيقة كان تنفيذ الحكم بكيفية أن يشنق المحكوم عليه بالاعدام ثم يبقى معلقا على مرأى من بقية المحكوم عليهم به و بالجلد حتى يجلد اثنان ؟ ؟ . - سألوه هل حقيقة كان الشنق والجلد على مرأى من الاهل يبكون والنساء يندبن و يعولن ؟ ؟

سألوه هل كان التنفيذ بواسطة الكبتن متشل مستشار الداخلية (لانه لا يزال برتبة كابتن فى الجيش الانكليزى) - وقد وصفوه وصفا مهينا جدا كما يرى القراء في محضر جلسة البرلمان المنشور اليوم نقلا عن التيمس

سألوه أشياء من هذا القبيل فكان لا يستطيع أن يجيب بالايجاب وهو يعلم أن كل ماسألوه اياه واقع لاريب فيه . وكان كل مايقدر عليه في هذا الموقف الحرج أن يعد بالجواب ريثما تأتيه التفصيلات الوافية فى ذلك - ولو أجابهم بالايجاب في ذلك الموقف لساءت حالة الوزارة وساء حال كبار المحتلين في مصر بما لا يعلم الا الله نتيجته

***

على أن اللورد كرومر وجد من هذا المضيق الخطر فرجا له ولوزير الخارجية فى جلسة تالية فاتهم الامة المصرية كلها بالتعصب الديني على الاوربيين . وقال ان عمل الحكومة المصرية في حادثة دنشواى كلها كان عملا استثنائيا اخماداً لثورة خفية في الطبقة النازلة من الامة وهدد مصر بمعاملات جائرة ربما اضطرت لها الحكومة اضطرارا . وكان هذا ختام فصول الرواية فى البرلمان الذى ترجح عنده الآن أن الامة المصرية كلها أثيمة مجرمة لا أهل دنشواى وحدهم . وان مركز الحكومة المصرية يحف بالاخطار الهائلة ان لم يطلق لها السراح للنهاية فى استعمال كل ماتريد استعماله عند الحاجة مخالفا للدستور ولطرائق الامم المتمدنة

***

ما الذي أوجب اللورد كرومر أن يدافع عن نفسه وعن بقية أعوانه في البرلمان بهذا

السلاح الخطر المضر بمصر وأهليها ؟؟

ما الذى أوجب القائمين بادارة مصر الآن أن يلجؤا الى هذا العنف المودى بأهليها اتهاما وعزما ؟؟

ما الذى اضطر ناظر الخارجية أن يهدد الامة المصرية فى مستقبلها مثل هذا التهديد ؟؟

أوجب ذلك كله ضعف في سياسة القوم يحاولون سد فراغه بهذا العنف الشديد

ولكن حنانيك أيها اللورد الكريم . وعطفا أيها العامل المصلح الذى ماعهدناه يريد لمصر غير الخير والفلاح . وانصافا أيها الرجل الشريف النزيه الذي لا يرضيه أن تضحى مصلحة أمة شكورة تعرف الجميل لصانعه ولا تنساه — أن يخدعك عجز أعوانك فتحكم خطأ على أمة كتبت صحف تاريخك فيها بيضاء فتعكسها آية انتقام لامحل له منك بما تجره عليها من الويل والثبور فى مصير الأمور

(المؤيد في ١٨ جمادى الاولى سنة ١٣٢٤ — ١٠ يوليه سنة ١٩٠٦ — عدد ٤٩١١)

لا تعصب

في مصر

التعصب بالمعنى المعروف فى الغرب عن أهل الشرق . وبعبارة أخرى عند المسيحيين عن المسلمين هو انبثاث روح العداء والبغضاء من الآخرين ضد الاولين انبثاثا يحمل علي الاعتداء عليهم حينا بعد حين

التعصب بهذا المعنى رذيلة من الرذائل التى ينهى عنها الدين الاسلامى والقوانين الاجتماعية وفي نظر الاوربيين هو التوحش الذى يفتك بنفوس الابرياء كلما ثار ثائره . أو هو أشبه بالغول الكاسر الذى يندفع بعماية فيفترس كل مافى طريقه من نفوس البشر

التعصب على هذا مجموع أرواح شريرة لانظام لها فى ثورانها وعدوانها نعوذ بالله أن ترزأ أمة بهذا البلاء العظيم

قالوا ان المصريين متعصبون تعصبا دينيا . ومعنى هذا أنهم يكرهون المخالفين لهم فى

الدين كراهة عمياء يعتدون عليهم بروح البغضاء المتناهية كلما سنحت لهم فرصة الافتراس أو استفزهم صائح ويقولون ان هذه الفطرة قد أيقظها من أول هـذا العام موقظ فتنة جاء من ناحية الاستانة العلية بسبب مسئلة العقبة

فلننظر ماذا كان من نتائج تلك اليقظة المزعومة ؟ ؟

هل كان من نتائجها أن فريقا من المسلمين هنا وهناك انقضوا على جماعات أوأفراد من المسيحيين انقضاض بغضاء وعدوان متأصلين فىالنفوس ثائرين بها؟

فان كان الجواب لا . قلنا قـد بطلت دعوا كم وجود هـذا التعصب . وان كان نعم قلنا ماهي تلك الحوادث التى تتخذونها دليـلا على صحة الدعوى ونحن علي يقـين أنهـم لايجدون حادثة واحدة فضلا عن جملة حوادث يقيمونها برهانا علي صحة دعواهم

يقولون ان حادثةدنشواى كانت مظهرا لهـذا التعصب فان المعتـدين كانوا من أول وهلة مستعدين للفتك بالضباط الانكليز الذين وافوا بلدهم لصيد الحمام

قلنا انها برهان على كـذب الدعوى لاعلي صحتها . فان الضـباط ساروا فى مظاهرة عسكرية من القاهرة الى الاسكندرية كما يفعلون ذلك فىصيف كل عام منذ بضع سنوات. وقد مروا فى ذهابهـم على مئات من البلدان والقرى مثل دنشواى فـلم يلاقوا الا حفاوة حسنة من الاهلين في كل مكان . ولو أنهم ساروا فىطريقهم دون أن يعرجوا علىدنشواى أو أنهم عرجوا عليها ولم يصـيدوا حمامها ماأصابهم شئ فان كان أهالى دنشواى قد ثاروا وفتكوا بالضباط. وارتـكبوا من الآثام اضـعاف ماارتـكبوا . ولو وصفوا فىذلك بالتعصب الاعمى فقد كان تعصبهم للحمام لاللدين . اللهم الا اذا قيـل ان الامة المصرية كلها أهالى دنشواي أولا مسلمون فىالقطر الاهم فانه ربما كان لزعم التعصب الدينى وقتئذ وجه

ولكن أهالى دنشواى ليسوا الامة المصرية بأكملها بـل الذين ثبت عليهم الاعتداء والتجمهر لم يكونوا الا ٢١ نفسا من أهالى دنشواى على التوسع العظيم الذى توسعته المحكمة المخصوصة فهل الامة المصرية كلها هذا العدد حتى تتهم بالتعصب الدينى

في البلاد من قديم الزمان أديان مختلفة يتجاور أهلوها في المنازل ويتشاركون فى المرافق ويتنافسون فى الاعمال فـلم تكن بين المسلمين والاقباط تلك الروح الشريرة . ولو كانت

في فطرة المسلمين أو فطرة الفريقين للاشت الا كثرية الاقليـة فى عصور مضت وخصوصا في عصور كانت الجهالة فيها سائدة وكان بعض الحكام من المماليك وغيرهم يبذرون بذور البغضاء بين الفريقين لا لخدمة دينية اسلامية ولكن لاغراض شتى منشؤها الشهوات والمطامع. ولكن التواريخ تدل على ان الفريقين عاشا مع الوئام التام في كل الظروف أوفى أكثرها

***

وفد على القطر المصرى منذ أول عهد المرحوم محمد على باشا الكبير وفود من كل الطوائف المسيحية غربية وشرقية من أرمن وأروام وسوريين وفرنساويين وطليانيين وانكليز ونمساويين وامريكانيين من بروتستانت وكاثوليك وأرثوذكس وغير ذلك من علماء وتجار وصناع وعملة وهمل متشردين . فلقى الكل في مصر صدراً رحيبا على هذا

كان منهم الموظفون في كل مصلحة حتى تولى نوبار باشا وهو أرمنى فوق كونه مسيحيا وللارمن حزازات كثيرة مع المسلمين في ممالك الدولة العلية رئاسة النظار فى مصر وفي خلال مظاهر تلك الحزازات وثوراتها المتوالية من الارمن على المسلمين وجد نوبار باشا قائمقام خديوى ورئيس الاحتفال بموكب المحمل الشريف فهل يوجد في أمة غير الامة المصرية المسلمة مثل هذا التساهل فيرأس احتفالاً دينيا مسيحيا مسلم أوغير مسيحى

وكان من علمائهم الاساتذة والمعلمون ونظار المدارس والمكتشفون فهل الامة التى تربى أبناءها علي أيدى الاساتذة من غير دينها . وهل الامة التي يوجد فيها مثل مدارس الجزويت والفرير والمرسلين الامريكان دعاة للدين وفى مدارسهم أبناؤها تعد متعصبة ؟ ؟

وكان التجار علي مايحبون من الرحب والسعة وحسن القبول فضربوا في البلاد بمتاجرهم من غث وسمين وجيد ورديء وخالص ومغشوش حتى صارت مصر من أوسع أسواق متاجر أوروبا ومعاملها

وكان الصناع أساتذة ومعلمين ومستخدمين في أعمالهم التى وجدت اقبالا من الامة هائلا . وقد استمر الاقبال على صنائع الغربيين وزاد الآن حتى استشاط جناب اللورد كرومر غيظا من هذا الافراط فى رغبة الامة المصرية فى البضائع الافرنجية وكتب فصلا هو أحسن ما كتب في تقريره الاخير تحت عنوان (التعليم الصناعى) قال فيه

« ان مما يوجب الاسف أن الصنائع التى اشتغل الوطنيون أنفسهم بها قروناطوالا آخذة في الانقراض . فالترمواى يحل محل الحمير لنقل الركاب و بانقراض ركوب الحمير تنقرض صناعة السروج وتوابعها . ومنذ قل استعمال البلاط البلدى لتبليط أراضي الغرف أخذت صناعة الحصر تنقرض . وقد جعلت الطلمبة الحديثة تحل محل ساقية الماء . ولما كان الدباغ الوطنى يجهل طرق الدباغة الحديثة قد طفق ينقرض أمام زميله الاوروبي وصناعة النسيج في انحطاط والمنسوجات الاوروبية تحل محل المنسوجات الوطنية . وقد أخبرت أن الصباغ بالنيلة بطل أوكاد لان المنسوجات القطنية التى تصنع منها ملابس الفلاحين عادة ترد من الخارج مصبوغة بالنيلة الصناعية . وقد جعل الاهالى يستبدلون ملابسهم المزركشة الزاهية الالوان التي يخيطها الخياطون الوطنيون بالملابس الاوربية التى ترد جاهزة . وكسدت صناعة الاحذية الحمراء الوطنيـة حتى صار المشايخ وهم أكثر الاهالى تمسكا بالقديم يلبسون أحذية أوربية . والمنجد الذى كان يرضى الجيل القديم رأى نفسه عاجزاً الآن عن ارضاء الجديد يصنع كراسي ومقاعد من طراز لويس الخامس عشر - الى أن قال والاختلاف ظاهر لكل من يقابل بين مصر الآن وما كانت عليه منذ عشر سنوات أو خمس عشرة سنة . فان الشوارع التي كانت مزدحمة بالصناع من غزالين وحاكة وعقادين وصباغين وخيامين وأساكفة وصاغة وعطارين وقربية وسروجية وصانعى مناخل وأقفال ومن شاكلهم كلها قلت جداً أودرست وقام على أطلالها قهاوى ودكاكين صغيرة ملآنة بضائع أوربية الخ الخ » اه

* * *

فالاختلاط التجارى الاوروبى قد وصل في مصر الى مثل هذا الحد الذى وصفه جناب للورد أوضح وصف وحزن من أجله كثيراً هل يتصور أن برافقه تعصب دينى من أهالى البلاد على الاوربيين . بل الجماعات المتشردة من كل أمة وجنس ومذهب تفد على مصر متزايدة كل عام فلا تجد فى العالم مهداً أكثر رفقا والفة للنزيل أيا كان نوعه من الامة المصرية

وهؤلاء الاروام يقيمون الاكواخ الصغيرة الحقيرة لبيع الخمور الرديئة فى كل قرية من قرى القطر مهما سحقت وقل عددها أو يربون الخنازير و يثرون شيأ فشيأ حتى يكون

الصعلوك منهم في بضع سنوات صاحب القرية ومزارعها ومداينا أهليها وسيدهم وهم يكادون يعبدون الخواجه من دون الله اعظاما له واجلالا. فهل هؤلاء هم المتعصبون الذين يخشى من شرهم فى وادى النيل على الاوربيين

هذه البنوك أصبح لها في كل المديريات والمراكز فروع تعامل الاهلين بالربا وهؤلاء اليهود والاروام يعاملونهم من قديم الزمان بأضعاف الربا الفاحش . والربا محرم في الاسلام ومثار للنفوس لانه شيء من أخذ أموال الناس بالباطل وخصوصا اذا كان فاحشا . فكيف يكون عند المصريين تعصب ديني وهؤلاء بينهم تتسع معاملاتهم معهم وكثيراً ماتنتهى هذه المعاملات بمصادرات المدينين فى أملاكهم ولايخطر على بال مسلم خاطر سوء من ناحيتهم لعلمه أن دينه ينهاه عن ذلك حيث لاتكفى القوانين النظامية زاجرة للنفوس المتعصبة لان للاعتداء ضروبا شتي وطرقا خفية أكثر منها ظاهرة وهذه تعديات الاهالى على بعضهم تعد بالالوف في حين أن تعدياتهم على غيرهم لاتكاد تذكر في جانب تعديات الاجانب على بعضهم في هذه البلاد .

فكيف تعمى أعين الناظرين عن هذه الشمس المشرقة العامة بأشعتها على أرجاء القطر ويقوم مفترون يزعمون أن في المصريين الآن تعصبا ثائراً يكاد يفتك بالاوروبيين لمجرد كونهم مسيحيين

أيها المدعون راقبوا الله في أمة رزئت بالاهمال في شؤونها حتى انحلت عرى الجامعة بين أفرادها وذهبت منها ريح العصبية في كل شيء . والعصبية قوام الطوائف وقوام الجماعات وقوام الامم فحرام عليكم مع هذا الانحلال أن تتهموها بالتعصب فى أشد حالاته

أيها الزاعمون راقبوا الذمة في أمة منيت باحتلال الاجنبي القوى وهو يريد أن ينتهز الفرص ليحدث فيها الحدث الاكبر فيقضى على بقية استقلالها . فحرام عليكم مع هذا الاحتلال أن تتهموها بالتعصب في أقبح درجاته

أيها الظالمون . اتقوا ربكم في أمة منيت ادارتها بالاختلال فللحوادث فيها كل يوم مجال فلا تزيدوا مصائبها بتهمة التعصب الجالب لاكبر اخطاره وويلاته

تقول بعض صحف الاحتلال انه لايكفى لتبرئة الامة من هذه التهمة الشنيعة مجرد

تكذيبها . ونحن نقول ان البراءة أصل وان التهمة طارئة فلا يكفى فى اثباتها مجرد زعمها وادعائها . وليس كلام ناظر خارجية انكلترا أو كلام اللورد كرومر فى ذلك الا مجرد دعوى لا برهان عليها . والحق أكبر من اللورد وأكبر من الوزير . قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين .

في قصر الدوبارة — بعد يوم الاربعاء

« أبحر جناب اللورد كرومر من مرسيليا يوم الجمعة على الباخرة — مرمره — عائدا الي مصر فيبلغها يوم الاربعاء » (الجرائد المحلية)

فهرست مقالات هذا العنوان كما وردت في جريدة المؤيد

١

« الطوب أو القلوب »

يوم الاربعاء القادم يعود جناب اللورد كرومر الى القطر المصرى وقد نقص عدد سكان البلاد أربعة من الرجال قضوا في دنشواي شنقا وكانوا حتى يوم سفر اللورد الى انكلترا احياء يرزقون . لكن السياسة لاقلب لها وجناب اللورد سياسي محنك مشهود له فهو لا يشعر بهذا النقص التافه الذى طرأ على أمة يربو عددها على ١٢ مليونا

الا ان السياسة التى لاقلب لها ولا حنان . لها فى الوقت نفسه قلب يتأثر من الفشل والخسارة ومن هذا القبيل ينتظر أن يتأثر جناب اللورد عند وصوله لانه سيجد في هذه البلاد نقصا كبيرا من هذه الوجهة

ذلك النقص الذى يؤثر علي قلوب السياسيين وهو مايعبر عنه بالفشل . نريد به ازدياد نفرة الامة المصرية من الاحتلال . نفور الشعب المصرى وتألمه من خطأين كبيرين ارتكبهما الاحتلال فالخطأ الاول ـ خاص بعواطف الامة المصرية الوطنية والثانى خاص بالجامعة الدينية

سيجد جناب اللورد عند وصوله الى قصر الدوبارة قلوباً نافرة ونفوساً مشمئزة . أولاً لان السلطة الانكليزية ضربت مصر بيد من حديد في حادث تعتبره الامة من أبسط حوادث الاعتداء والخصام وهو حادث دنشواى . ثانيا لان الحكومة الانكليزية بلسان ناظر خارجيتها اتهمت الامه المصرية بالتعصب الديني وصورتها لاوروبا فى شكل أمة متوحشة مخيفة خالية من المدنية والتهذيب لا يمنعها من ارتكاب جريمة لاترتكبها أمة متمدنة سوى القوة القاهرة . صوروا الامة المصرية الاسلامية فى شكل ديوان تفتيش اسبانيا بل أوهموا أوروبا أنها توشك أن ترى في مصر طبعة ثانية من مذبحة سان برتلماو وان مصر الاسلامية ستكون فرنسا الكاثوليكية وأن الاجانب في مصر قد يذهبون فريسة تعصبها كما ذهب البروتستانت فريسة تلك المذبحة الفرنساوية وانه لابد لمنع هذه الفظائع من تجييش الجيوش وأخذ الاهبة بزيادة جيش الاحتلال

جرى كل ذلك اثناء غياب جناب اللورد فى انكلترا وهو عائد الآن والعالم باسره الذى سمع تلك التهم وشهد ذلك التمثيل والامة المصرية أيضا تنتظر أن تعلم رأيه وان تعرف خطته بعد ما استوثق من تأييد دولته له وأخذها بيده

وأول ما يتوقون الى معرفته بعد كل ماحدث هو هذا ـ

هل يريد جناب اللورد كرومر أن يعطى حكومته طوب مصر أم هو يريد أن يجمع من حولها قلوب المصريين ؟

لقد نشأت الامة المصرية كما نشأت باقى الامم الشرقية على عادات وأخلاق وعواطف تختلف كثيرا عن عادات الانكليز واخلاقهم وعواطفهم . وامتلاك قلوب امة هذه احوالها لا يكون باستعمال وسائل العنف الا اذا أراد الغالب القوي ان يكون مستبداً جبارا وهذا ما يتبرأ منه الانكليز ويقولون انهم اعظم الامم ميلا الى الرفق وانهم افضل الدول استعمارا

والامة المصرية على ماذكرنا من اختلاف عاداتها وأخلاقها الطبيعية المتأصلة فيها لا يمكن تغييرها بمثل سرعة تغيير حدودها وهندسة شوارعها . وانما يستطيع الانكليز ان يستميلوا هذه الامة بالمعاملة الحسنة فيستولوا على القلوب بدلا من الاكتفاء بالاستيلاء على الطوب

واهم ما يرجى ان تنصرف اليه عناية جناب اللورد الآن تحريض جمهور الموظفين

الانكليز على اعتبار أنفسهم فى منزلة عمال لا رؤساء فى مقام موظفين يعملون لمنفعة مصر وخدمتها مقابل مرتباتهم لافي مقام آلهة ينتظرون أن يسجد لهم المصرى

ولا شك عندنا ان جناب اللورد قد درس الاسباب التي من أجلها اشتهر نفور الامم الشرقية من الانكليز مع انهم يمتزجون مع كثير من الشعوب الاخرى ويأنسون بهم وناهيك بلطف الفرنساوى الموظف والعامل والتاجر بازاء تلك الكبرياء المشهورة وعلى خلاف ذلك فمن الحكمة أن يأمر جناب اللورد ان تسرى هذه الروح بين جميع الموظفين الانكليز في مصر واذ ذاك يستأنس المصرى عن رغبة لا عن خوف ورهبة

والامر الآخر الذى تنتظره الامة المصرية من حكمة جناب اللورد هو انه اذا كان لابد من تسليم المناصب الخطيرة لقوم من الانكليز فليكن اختيار هؤلاء من الرجال الذين يؤثر حكمهم تأثيرا حسناً على الاهالى بمعنى أن يأتينا برجال لهم حنكة واختبار وشئ من جلال العمر بعيدين عن نزق الشباب وصلف النفوذ فان تقليد المناصب للاكفاء المجربين بطول الزمن يزيد الوظيفة نفوذاً ووقاراً و يبعد عنها شعب الشباب المضرة

و يعلم جناب اللورد أيضا ان الامة الانكليزية على رسوخ قدمها في المدنية والتهذيب العام لاتزال حتى الآن تلبس قضاة محاكمها الشعور البيضاء المستعارة حتى يخيل لمن يقف فى محاكمها انه امام مجمع من الشيوخ وانما أرادوا من تلك العادة الزام القوم بما في جلال الشيخوخة من مستوجبات الوقار — والنفوس تخضع دائما للمعمرين

و يعلم جناب اللورد ان الامم الشرقية وخصوصا الاسلامية منها توقر الشيخوخة أكثر من سائر الامم تبعا لخضوع العقل للتجربة فما هى الحكمة اذاً فى اعطاء أعظم المناصب فى مصر لشبان لايزالون فى الادوار الاولى من حياتهم وانما يبدؤن فى مصر نفسها التى جاؤا لاصلاحها بدارسة السياسة والرئاسة وتولى الاحكام

ليتصور جناب اللورد الجليل الحكيم رجال مجلس شورى القوانين وكلهم شيوخ في السن والاختبار يأخذون رأى أحد المستشارين أو يودعونه في سفره مثلا . اذا راقب اللورد هذه الحالة ذات يوم وتذكر عادات هذه الامة وأخلاقها ألا يشمئز اذ يرى عشرة من رجال مصر وخيرة أعيانها ونواب شعبها — الصغير فيهم تجاوز ٥٠ سنة من عمره وقوفا بين يدي

شاب خرج بالامس من حضن مدرسته . الشيوخ الشيب في ملابسهم الرسمية التي يلبسونها عادة لدى تشرفهم بالجناب العالى الخديوى والمستشار ياجناب اللوردواقف بينهم في ثوب من التيل الابيض مقلوب عند طرفي ساقيه كأنه يغوص في السواقى وعلى رأسه قبعة القش والغليون بين شفتيه وربما كان كلبه الصغير من ورائه

نحن ياجناب اللورد لانقول ان الشبان لا يكونون حكماء اذكياء ولكن نقول ان الامة المستعمرة التى تريد امتلاك القلوب في استعمارها يجب ان تستخدم المحنكين المجربين ويجب ان تراعي بقدر الامكان عوائد الشعوب وموعدنا فيما بقي الغد

(المؤيد في ٢٦ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٤ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٢)

٢

حرية . مراقبة أو تقييد

فى القطر المصرى الآن سلطة قوية قادرة هى الصحافة الوطنية لا أدعي لها الكمال ولكني أقول ولا أخشى لومة لائم انها قوة قادرة وكلمة نافذة وصوت يخترق الاسماع ويؤثر على القلوب قد تخطيء أحيانا ولكنها تصيب غالباً وللامة تعلق بها وميل اليها وثقة بآرائها واعتمادا على صحة وطنيتها . وخلاصة مايقال عن أهمية الصحافة الوطنية فى مصر انها ـ على علاتها ـ هى السلاح الوحيد الذى أباه الاحتلال أو أوجده فى يد الوطنى لدفع المكروه باعلان استيائه فأنت تعلم ان الاحتلال استولى على كل نفوذ في كل دائرة من دوائر الاحكام بواسطة المستشارين ولم يبق حرا فى مصر غير الصحافة فهى موضع أمل المصرى فى شدته وكربه ينقل بواسطتها شكواه أو يعلن رضاه

قد علم جناب اللورد كرومر كل ذلك وجاهر بعلمه هذا فقال فى تقريره ان الجرائد المصرية هى الرقيب على أعماله

على انه لما حدثت حادثة دنشواى والعقبة من قبلها رأى جناب اللورد أن تلك القوة الصحافية قد عظمت وتفاقم أمرها فأراد أن يسكتها واتهمها أولا أنها كاذبة وأنها أبرع جرائد العالم فى اختراع الاراجيف ثم اتهمها وكيله بأنها انما صاحت صيحتها التى أزعجت

كل موظف انكليزى في مصر بعامل الرشوة ثم قام اللورد يتهدد حرية الصحافة المصرية من طرف خفي

لذلك خيل لبعض الناس أن جناب اللورد كرومر ربما اهتم بامر الصحافة الوطنية عند رجوعه وذهبوا مذاهب كثيرة فيما عسى أن يفعله اذا أراد أن يفعل شيئاً

هل يبقى لها حريتها الحالية ؟

هل يهتدى الى طريقة لمراقبتها ؟

هل يقيدها ؟

فالذى نراه بما نعتقده فى حكمة جناب المعتمد البريطاني ورسوخ المبادئ الانكليزية الاصلية فيه انه لايمس حرية الجرائد فلا هو يراقبها ولا هو يقيدها

ولنا على هـذا الاعتقاد شاهد تاريخي قديم . ذلك ان كل من كانوا يحيطون بالوكالة البريطانية من موظفين وغير موظفين انكليز أوغير انكليز قبل بضع سنوات رأوا في وجود المؤيد مايحرج صدورهم فخاطب بعضهم اللورد في اسقاطه بأى وسيلة من الوسائل فأجابهم يومئذ «ان اسقاطه لايكون الا باحد أمرين . ايقاع صاحب المؤيد في مكيدة يكون بها القضاء على جريدته . أو الغائها بطريقة استبدادية . والاول لاترضاه ذمتى . والثانى لايرضاه البرلمان »

فيفهم من هذا الشاهد التاريخى الخاص بالصحافة الوطنية المصرية وهو الشاهد الذى كان به تأسيس وجودها الحقيقي أن جناب اللورد يحترم مبادئ الحرية الشريفة في الصحافة بعاملين . عامل ذاتي فيه وعامل تربى على قواعده

وهذا ماننتظر أن تكون خطة اللورد عليه في خاتمة أعماله في مصر فلا يحمله الغضب الوقتي من هـذه الصحافة على أن يحطم بيديه أعز بناء قام على يديه وكانت فيه التعزية الوحيدة للمصريين

بل هكذا نرجو وهذا الذى نأمله ولكن الليالى حبالى يلدن كل عجيبة

ولكي نحيط بالموضوع من جميع أطرافه نقول ان جناب اللورد قد رأى كما رأى كل من راقب الصحافة المصرية أخيرا ان منها الشاذ الذي لاأهمية له ولاانتشار ومنها الجرائد

المتطرفة التى لاترى فى الانكليز والاحتلال خيرا على الاطلاق ثم هى أحيانا تتجاوز الحد فى غيرتها الوطنية ومنها الجرائد المعتدلة التى تحترم الحقيقة وتريد أن تكون المرآة النافعة للوطن وأهله فى كل حادث ومنها الجرائد المتطرفة من جانب آخر فلا ترى في الانكليز والاحتلال سوأ أو خطأ على الاطلاق ثم هى تتجاوز الحد فى ميلها الى الانكليز وأكثر الاحيان في نكاية المصريين وايلامهم

هذه جرائدنا وأقسامها فاذا كان الانكليز قد ساءهم منها رأى أو لهجة فلا يعقل أنهم يستاؤن من الجرائد المعتدلة فاستياؤهم اذن حاصل من لهجة الجرائد الوطنية المتطرفة واذا أراد جناب اللورد كرومر ان يراقب الصحافة أو ان يقيد حريتها فلانه مستاء من المتطرفة فى وطنيتها

ليسمح لنا جنابه ان نخاطبه بحرية معتدلة

اولا . لايجوز معاقبة الصحافة المصرية عموما بجريرة صحيفة واحدة

ثانيا . اذا كانت جريدة مصرية قد تطرفت فى حدتها لوطنها ومصلحته ورأى جنابه أنها تستحق العقاب فما حال جريدة تطرفت أيضا في حدتها ضد مصلحة مصر والمصريين ؟

اذا رأى جناب اللورد أن يراقب الجرائد واقتضى ذلك منع الجرائد الوطنية عن التطرف في تنفير الامة من الاحتلال ونتج عن هذا الظلم مراقبة الجريدة التى تغتنم كل فرصة لتجرح العواطف الوطنية ومنع سهامها المؤذية الجارحة فلا بأس من ذلك لان مصر اذا خسرت حرية جرائدها المطلقة تربح على الاقل خلاصها من لهجة مؤلمة لعواطف الامة وسهام مؤذية توجهها اليها كل يوم جرائد الاحتلال أو بعضها ولكن الحكمة تقضى بغير هذه الخطة أيضا

تقضى الحكمة على من يريد أن يكسب قلوب مصر لاطوبها فقط أن يخفف من عنف سلطته القاهرة وأن يوصى عماله الذين يديرون دولاب الاعمال والوظائف ان يحسنوا معاملة الاهالى وان يجيب الامة الى مطالبها العادلة وأن يمنع عنها اساءة اعدائها الذين مابرحوا منذ سنوات كثيرة يسيئون اليها ويصورون تلك الاساءة وتلك الجراح كأنها شبيهة بالرسمية موحى بها من الوكالة الانكليزية والناس في حيرة لايعلمون ماذا يفتكرون

ليفعل جناب اللورد كل هذا وهو سهل يسير عليه ومنطبق على المبادئ الانكليزية

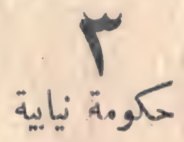
الشريفة بدلا من ان يفعل الصعب العسير وهو غير منطبق على تلك المبادئ . اننا نضمن له اذا فعل وابقى للامة المصرية حرية الصحافة تعزية لها على مصابها باحتلال اجنبي ان لايرى في الصحافة المصرية مايراه الآن ويومئذ يكون التطرف فى بعض الجرائد الوطنيه مؤذيا لها لامروجا

وأما اذا راقب جناب اللورد الجرائد أوقيدها فانه لاينال الغاية التى يرمى اليها . لان الامتيازات الاجنبية تساعد من أراد على الاحتماء بأجنبي لابراز آرائه واذا احتاط جنابه لذلك من باب فغدت لا يمكنه سد أبواب كثيرة من هذا القبيل

ثم لا يجهل جناب اللورد ان « أحب شئ الى الانسان ما منعا » وان حجز حرية الجرائد يزيد الاهالى تعلقا بالمتطرفة منها وينشئ في النفوس ريبا وفى الناشئة نزوعا الى أعمال منكرة قد لاتخطر له الآن على بال

فالذى نراه بعد هذا وذاك ان جناب اللورد لايراقب ولا يقيد ولكن من الحكمة أن يسهل للجرائد على الاطلاق الاعتدال في كتابتها وذلك انما يكون لواهتم وعنى بمطالبها وأنفذ الحق والعادل منها . ومتى رأت الامة استثمار شجرة الحرية من هذه الطريقة ألفتها وقضت على الشذوذ فيها القضاء الذى يحاول بعضهم الوصول اليه من غير طريقه الحقيقية

(المؤيد في ٢٧ شعبان سنة ١٣٢٤ - ١٥ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٣)



٣
حكومة نيابية

ان الصوت الذى يسمعه جناب اللورد كرومر بعد رجوعه من مصيفه صوت مصر تنشد لنفسها حكومة دستورية نيابية - ليس صوتا جديدا لم يسمعه اللورد من قبل . وليس هو بخاطر طاف الآن فقط على نفوس المصريين . ولا هو مطلب تنزع اليه مصر محاكاة للفرس أو الروس والترنسفاليين الآن ولا تشبها بالانكليز والفرنسيس والالمان وغيرهم من قبل

بل هو ميل قديم في المسلمين فطروا عليه منذ نشأتهم لان الشورى من قواعد أحكام الشريعة الاسلامية فى ادارة شؤون الامة . تلك الشورى التى وجدت فى الاسلام قبل أن توجد في

انكلترا الدستورية المنظمة . غرسها الايمان في قلوبهم وأذهانهم اذ جاء فى القرآن الكريم آمراً النبي صلى الله عليه وسلم « وشاورهم في الامر » أي فى كل ماهو خاص بحكم الامة وجاء فيه وصفاً لاصحابه « وأمرهم شورى بينهم » . وناهيك بنظام لايعين فيه الخليفة العام الا بالبيعة العامة . وكان أصحاب النفوذ فى صدر الاسلام هم أصحاب الرأى والعقل يراجعون رسول الله عليه الصلاة والسلام فيما يقول من نفسه فيقول لهم انما أنا بشر مثلكم أخطئ وأصيب . ولو كانت العرب يومئذ مترقية فى العلوم والمعارف لوجد فى دول الاسلام الاولى للحكومة النيابية نظام شامل كامل مثل الذى وجد في الامم الغربية المتمدنة بعد لان روح نظامها لاتخالف المبادئ الاسلامية في كل ماهو صالح للبشر

اذن فمصر تطلب فى سنة ١٣٢٤ هجرية ماوضع أساسه الاسلام قبل وجود التاريخ الهجرى في حساب العالم

وفضلا عن ذلك ان مصر لاتكاف معتمد الدولة البريطانية عملا مستحيلا . فنحن نعتقد ان مصر أهل للدستور النيابي كما انها فى حاجة شديدة اليه .

أما كونها أهلا للدستور فلأنها منحته قبل الاحتلال ولم يكن هو ينبوع الثورة حتى يقال انه أضر وما نفع . بل كان ينبوع الثورة ومنشؤها قبول الحكومة الادارية من رجال العسكرية التداخل في شؤن ادارتها وعدم الاخلاص فى صدهم عن هذا التداخل من القادرين عليه ـ وأيضا لان الامة العثمانية نالت حكومة نيابية يوماما وكانت أهلا لها ولو أنها بقيت فيها لكانت تركيا اليوم فى نظر العارفين أرقى منها أمس بكثير . وانما جاء تعطيل مجلس المبعوثان لاسباب لاعلاقة لها بكفاءة الامة

ثم ان العجم والترنسفال قد نالتا في هذه الايام حكومة نيابية كما نالت اليونان وبلغاريا مثل ذلك قبل الآن

فاما أن تعطى مصر مامنحته أمثالها واما أن تكون السياسة القاضية بحرمانها منه سياسة ظالمة عاتية . وأما كون الامة الفارسية الآن أرقى من الامة المصرية واقبل للحكم النيابى فذلك مايأباه العقل والعدل والشرف

مصر فيها الرجال الاكفاء ولكن الاحتلال لايعترف بوجودهم الا اذا كانت له مصلحه

في هذا الاعتراف . فالرجال الوطنيون الذين جاء ذكرهم فى قضية دنشواى كانوا فى مذهب اللورد كرومر من اعظم الاكفاء الجديرين باعظام الحكومة الانكليزية واجلالها والخليقين بأن تثق الامة البريطانية بعدلهم فلا تبحث وراءهم فى حكم دنشواى . ففتحى بك زغلول من افضل القضاة واعرفهم بطرق العدالة . وهلباوى بك المدعى العمومى من أكبر الوطنيين استقلالا في الرأى . وأحمد لطفي أفندى السيد ومحمد يوسف بك واسماعيل عاصم أفندى من أفضل المحامين الجديرين بالتقدير والاحترام

فان كانوا كذلك كما وصفهم اللورد ونائبه في الكتب الرسمية . أفلا يوجد المئات أمثالهم من خيرة الوطنيين ونوابغهم استقلالا فى الرأى وعلما وفضلا . هل يوجد شئ أعز من النفس والدم . فلماذا يكون أمثال هؤلاء اكفاء لان تزهق الارواح على أيديهم في نظر اللورد ولا يكونون اكفاء لان يؤخذ رأيهم فيما هو دون النفس والدم مساسا بالهيئة الاجتماعية على أن اللورد كرومر لاينكر أنه يعرف رجالا كثيرين في مصر أرقى من أولئك الذين شهد لهم بالاهلية والكفاءة ويثق بهم أكثر من ثقته بهؤلاء الذين لم يكن يعرف اسم بعضهم قبل حادثة دنشواى

ثم ان اللورد يعرف قبل كل انسان ان الحكومة الانكليزيه كانت وعدت مصر بالدستور النيابى في سنة ١٨٨٢ يوم أشارت على المغفور له الخديو السابق بالغاء مجلس النواب المصرى الذى كان وقتئذ . فاذا كان بعد ربع قرن لايتحقق هذا الوعد فمتى يتحقق ؟ ؟

وبعد كل ماتقدم نقول

ماهو الضرر الذى يخشاه الاحتلال من منح مصر حكومة نيابية وقد منحت انكلترا هذا النظام للترنسفاليين الذين أثخنوها بالامس جراحا وازهقوا أرواح الالوف المؤلفة من أبنائها حتى ملئت بدمائهم السهول وحتى افرغوا خزائن انكلترا من المال

أفلا يخشى الانكليز من هؤلاء أكثر مما يخافون المصريين الذين برهنوا كل مدة الاحتلال على لين وسلامة نية وقبول للنصائح بل وصبر عظيم على مايضر و يغيظ

يعلم جناب اللورد أن الامة المصرية فى حاجة شديدة الى اصلاحات جمة حتي ان المستشارين أنفسهم في حيرة دون معرفة ماهو الصالح والطالح . ونحن نعلم ان جنابه لايريد

الا الاصلاح كما يريد أن يصل اليه من أقرب ذرائعه

أليس من الحكمة والحالة هـذه أن يسهل للامة المصرية احراز حكومة نيابية فاما أن تفلح فتحمل عنـه بعض الاثقال والمسؤلية واما أن تفشل فيكون فشلها حجة عليها فى مطالبها المستقبلة . الا اذا كان الرأى فى قصر الدوبارة أن تبقى مصر محكومة بأربعة أوخمسـة من الشبان فى وظائف المستشارين

أما الادعاء بأن مصر اذا نالت حكومـة نيابية تلقي بنفسها في أحضان الدولة العلية فهو ادعاء يقصد به ذر الرماد فى العيون ليس الا . لانه لا يوجد مصرى واحـد يفكر في مثل هذه النتيجة التي بسط تاريخ وادى النيل مضارها ونقشه على كل حجر من آثارها. كذلك لا تطلب مصر حكومة نيابية الا لتسير فى طريق الترقى بلا تخبـط كما يحصل الآن لقلة خبرة القابضين على أزمتها وربما كان ما يأتى غدا شرا مما هو الآن

*

* *

لقـد كانت ثقة جناب اللورد بعدل ونزاهة الموظفين الانكليز قبل الآن كافية لان يحدث النظام ناقصا فيكمله عملهم وقاسيا فتلطفه رحمتهم ومتغرضا فتعدل به الى المحجة الوسطي نزاهتهم . ولكن اللورد نفسه رأى بعد حادثة دنشواي ان ذلك العدل وتلك النزاهة غـير كافيتين في بعض الاحيان ولذلك وعـد بتعديل نظام المحكمة المخصوصة وتقييد هوى القضاة فى المستقبل

وهذا وحده مثال يبين ان الاحتياط يجب ان يكون في النظام قبل الاشخاص حتى اذا غضب الشخص واشمأزت نفسه من حادث كان النظام واقفا بجموده الذى لا يتأثر دون ابراز الانفعال الشخصى في قضائه وعمله

ان حادث دنشواى ياجناب اللورد قد أرى كل مصرى ماذا تفعل القوة القاهرة من تعدى الحدود فى عقوبة الوطنى عند عثاره . ومن تهديده بنزع الروح عند أنينه . ولو أن المسيطرين تجاوزوا الحد الذي وقفوا عنده ماصدهم صاد ولا وجدوا من غيرهم معارضا. وكل هذا لان الشخص الذى غضب مالك أن يضرب أشد الضربات ولا رادع له من القوانين التى تردع نفوس الغاضبين

كل واحد فى الوجود يغضب . وقد يغضب على من دونه من خادم وتابع ومرؤس . وقد يغضب على مزاحم له فى الطريق . أو منافس له فى عمل . وكل نفس نزاعة بحب الذات الى التفوق والظهور على الغير فلا يوقفها عن نزعها الا القوة التى تتخيلها باسرع من لمح البصر فتصدها اذ ذاك عن نزوعها للبطش بالغير . تلك القوة التي كانت قديما في الذات وفى التناصر بالقبيلة وتحولت الآن الى القوانين التى يتقاضى بها الناس امام القضاء (ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الارض). تلك القوة التى لم تكن تخطر على بال أحد من قضاة دنشواى ولا من منفذى أحكامها لان كل القوة فيما يفعلون وليس وراءهم من قوة تراقب عليهم

وماجرى في دنشواى يصح ان يجرى فى كل حادث يغضب له القوى وينفعل بل مثل هذا الاطلاق في العنان يجرى دائما في الاعمال التى لا تظهر نتائجها في الحال للعيان لان القابضين على أزمة الادارة المصرية عندنا قادرون على تغيير كل مادة قانونية لاتروق هواهم وهم يفعلون ذلك كلما أرادوا . فالقوة المراقبة من النظام في مصر مفقودة عند الانكليز لذلك كان كل موظف كبير منهم فى حكم ملك مستبد يتصرف فى الاعمال كما يشاء ويهوى

فهل يريد اللورد أن يحكم مصر بهذه الفوضى الى الابد . انه رجل شريف نزيه يقدر أن يلطف مضار الفوضى فى ادارة البلاد بقدر مايستطيع ولكن ضمانة الامم ليست في الاشخاص فان الملك المستبد العادل قد يذهب دوره ويأتى ملك مستبد ظالم . وأن العمال الذين ينالون الزلفى من حضرته قد يختلفون اميالا كذلك فتختلف نتائج أعمالهم الى حد يعلى الامم الى السماك أو ينزلها الى الحضيض

فاذا شاء المصلح أن يكون مصلحا الى الابد فليترك وراءه نظاما صالحا لا يقدر المفسدون بعده أن يهدموه وهذا مانريد أن يتركه اللورد كرومر في مصر ليذكر في أعقابها من أفضل المصلحين

(المؤيد في ٢٨ شعبان سنة ١٣٢٤ ــ ١٦ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٤)

استقبال اللورد كرومر

في وادى النيل شعراء كثيرون ولكن الذين يذكروننا منهم بفحول شعراء العرب اجادة في الاسلوب واحسانا في اختيار المعانى ومهارة في التلاعب بألباب السامعين قليلون . ومن هؤلاء بل من أفضلهم بلاغة في النظم وبراعة في الاسلوب وأجودهم اختيارا للمعاني الجزلة فى الالفاظ السهلة حضرة الشاعر الكبير حافظ أفندى ابراهيم

وقد نظم قصيدة غراء علي لسان مصر تستقبل بها اليوم جناب اللورد كرومر لدى عودته اليها من مصيفه بعد حادثة دنشواى تحية وعتابا واستعطافا فلعله معتب وعاطف . وهاهى القصيدة الجديرة بان تسمى (قصيدة القرن العشرين) لانها أسمى مانظم فيه حتى الآن وربما لاينظم أسمى منها فى بابها شعراء هذا العصر

قصر الدوبارة هل أتاك حديثنا ... فالشرق ربع له وضج المغرب

أهلا بساكنك الكريم ومرحبا ... بعد التحية اننى أتعتب

نقلت لنا الاسلاك عنك رسالة ... باتت لها أحشاؤنا تتلهب

ماذا أقول وأنت أصدق ناقل ... عنا ولكن السياسة تكذب

علمتنا معنى الحياة فمالنا ... لانشرئب لها ومالك تغضب

أنقمت منا أن نحس وانما ... هذا الذى تدعو اليه وتندب

أنت الذى يعزى اليه صلاحنا ... فيما تقرره لديك وتكتب

ان ضاق صدر النيل عما هاله ... يوم الحمام فان صدرك أرحب

أو كلما باح الحزين بأنة ... أمست الى معنى التعصب تنسب

رفقاً عميد الدولتين بأمة ... ضاق الرجاء بها وضاق المذهب

رفقا عميد الدولتين بأمة ... ليست بغير ولائها تتعذب

ان أرهقوا صيادكم فلعلهم ... للقوت لا للمسلمين تعصبوا

ولربما ضن الفقير بقوته ... وسخا بمهجته علي من يغصب

٭٭٭

في دنشواي وأنت عنا غائب — لعب (القضاء) بنا وعز المهرب
حسبوا النفوس من الحمام بديلة — فتسابقوا في صيدهن وصوبوا
نكبوا وأقفرت المنازل بعدهم — لو كنت حاضر أمرهم لم ينكبوا
خليتهم والقاسطون بمرصد — وسياطهم وحبالهم تتأهب
جلدوا ولو منيتهم لتعلقوا — بحبال من شنقوا ولم يتهيبوا
شنقوا ولو منحوا الخيار لاهلوا — بلظى سياط الجالدين ورحبوا
يتحاسدون علي الممات وكأسه — بين الشفاه وطعمه لا يعذب
موتان هذا عاجل متنمر — يرنو وهذا آجل يترقب
والمستشار مكاثر برجاله — ومعاجز ومناجز ومحزب
يختال في أنحائها متبسما — والدمع حول ركابه يتصبب
طاحوا بأربعة فأردوا خامسا — هو خير ما يرجو العميد ويطلب
حب يحاول غرسه في أنفس — يجنى بمغرسها الثناء الطيب
كن كيف شئت ولا تكل أرواحنا — للمستشار فان عدلك أخصب
وأفض على بوند اذا ولى القضا — رفقا يهش له القضاء ويطرب
قد كان حولك من رجالك نخبة — ساسوا الامور فدربوا وتدربوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية — طاش الشباب بهم وطار المنصب
فاجعل شعارك رحمة ومودة — ان القلوب مع المودة تكسب
واذا سئلت عن (الكنانة) قل لهم — هي أمة تلهو وشعب يلعب
فاستبق غفلتها ونم عنها تنم — فالناس أمثال الحوادث قلب

(المؤيد في ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٧ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٥)

تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥

قد تمر الايام على النظامات الناقصة ولا يظهر تمام نقصها الا بالحوادث الكبر

كذلك كان شأن ديكريتو سنة ١٨٩٥ الذي كان معلوما عند العموم نقصه بعد العلم لخلوه من قيود النظامات القانونية التى تصد الانفس عن هواها . ولكن واضعيه كانوا يعتقدون أن هناك ضمانة أخرى من الاشخاص . ولهذا لم يظهر نقصه تماما الا بعد احدى عشرة سنة من وجوده . أى بعد أن وجد حادث غضبت له نفوس القابضين على سلطته

فلما غضبوا ظهرت تلك القضية العامة فى الانسان « الظلم كمين في النفس القوة تظهره والضعف يخفيه »

ففى حادثة دنشواى تجلت قوة الانسان وضعف النظام بأكمل وجوههما . فظهرت صورة القوى مطلقا لنفسه العنان فى الانتقام وظهرت صورة الضعف شوهاء مظلمة متلاشية

ظهرت القسوة قادرة جبارة من اعماق نفس الانسان ففاضت الرحمة في أعماق قلبه أو ولت هاربة مذعورة

تلك كانت وظيفة المحكمة المخصوصة ومنفذى حكمها بمقتضى ديكريتو سنة ١٨٩٥

وقد قلنا في المقالة الاولى التى وجهنا وجهها شطر قصر الدوبارة انتظارا لما يكون فيه بعد توم الاربعاء ان خير ماتفعله انكلترا بواسطة معتمدها أن تسعى للاستيلاء على قلوب أهليها بدلا من طوبها . وان هذا هو مانعتقده في حكمته ونعتقد أنه يريده ولكن بقاء ديكريتو سنة ١٨٩٥ . ذلك النظام الابتر الضعيف الذى لا يصد قويا عن اتباع هوى النفس لا يلاً ئم ذلك المقصد الشريف . اذ لا يمكن أن يوفق بين استمالة قلوب المصريين وبين وجود المحكمة المخصوصة التى هى عبارة عن انذار دائم لهم بأن الجندى الانكليزى مقدس ولو كان معتديا وان الدفاع في وجهه عن النفس والقوت من أكبر الجرائم التى يعاقب عليها بالجلد والشنق والتمثيل الفظيع

انه لا تكون الفة حيث لا تفيض الرحمة من القلوب على الاعطاف ولا يكون وفاق الا حيث توجد المساواة . ولا رحمة ولا مساواة فلاعدل حيث توجد المحكمة المخصوصة التى ليست جديرة بهذا الاسم بل أجدر بها أن تسمي « الدائرة المخصوصة » لانها دائرة الدوائر التى تدور على المصرى بعقاب خاص لا يشترك فيه معه خصمه ان كان العدل يقتضى عقابهما معاً

فعلى م توجد هذه الدائرة الشاذة وفى البلاد محاكم منظمة يحاكم فيها كل وطنى

اعتدى على احد حتى على مقام ولى الامر هذه المحاكم التى باشر تنظيمها وتقويمها رجال الاحتلال تحت مراقبة المعتمد البريطاني منذ عشرين سنة . وجنابه يقول عنها فى تقريره العام كل عام انها سائرة في سبيل التقدم والارتقاء . وقد بلغ به اعتقاده فى صلاح نظامها ان اقترح الغاء المحاكم المختلطة والقنصلية اكتفاء بالمحاكم المصرية مضافا اليها شئ من النفوذ الاجنبى فى التشريع تعويضا لما يفقده الاوربيون من سلطة الامتيازات الاجنبية

فان كان الامر كذلك. وكانت المحاكم المصرية الحالية مما يؤتمن على ارواح واعراض واموال امة بأسرها من صاحب التاج الى الصعلوك فهى كافية ان تحافظ على كرامة الجندى الانكليزى فى البلاد . ولا يعوز الانكليز بعد ذلك الا أن يكون ذلك الجندى غير معتد والمصرى غير مدافع كما يقتضى العدل

على أن بقاء المحكمة المخصوصة يصادر ذلك الاقتراح من جهة أخرى . فان اللورد يحاول به أن يوحد القضاء ليكون النظام المحترم فى البلاد أكفل للعدل

فهل يريد جنابه عند الغاء المحاكم المختلطة والقنصلية أن يلغى المحكمة المخصوصة أيضاً . أم تلغى الامتيازات الاجنبية ويصير كل الاجانب سواء مع الوطنيين بين يدى النظام الشامل للجميع ماعدا الوطنى بازاء الجندى الانكليزي

ذلك ما نستبعد تصوره عند رجل كبير العقل مثل اللورد كرومر الذى ينبغي له أن يبدأ بالميسور من اقتراحه . ولا شك أن الغاء المحكمة المخصوصة (وهى فرع من الامتيازات أيضاً) ميسور أكثر من الغاء الامتيازات الاجنبية . لان الغاء ديكريتو سنة ١٨٩٥ يتوقف على كلمة واحدة منه وأما الغاء الامتيازات الاجنبية فيتوقف على رضى الدول بعد مخابرات طويلة جدا . فاذا فعل هذا يكون قد قدم لاوروبا أعظم برهان على صحة رأيه . والافان الدول تعتبر رعاياها أقدس حقاً من جنود انكلترا ثم يحق لها أن تدعي أن المحاكم التى لايراها اللورد حتى الآن صالحة للنظر فى قضايا الاعتداء على العساكر الانكليزية ليست صالحة أيضاً للنظر في قضايا الاجانب

**

فمما تقدم يرى كل منصف ان للمصريين ألحق في أن يألموا من وجود دكريتو سنة

١٨٩٥ . أولا لان وجود المحكمة المخصوصة حجة دائمة على نقص محاكم مصر . ثانياً لانها حجة دائمة على خوف انكلترا من المصريين . ثالثاً وهو الاهم . أن وجودها والعدل ضدان لايجتمعان

لان عنوان العدل « تكافوء القوى » والمحكمة المخصوصة عبارة عن سوط عذاب فظيع فى يد القوى للضعيف أعده للانتقام لاللجزاء كما ظهر هذا الانتقام بأشد حالاته فى حادثة دنشواى

ثم بعد ذلك نقول ان جناب اللورد قد صرح بضرورة تعديل ديكريتو سنة ١٨٩٥ بتقييد أحكامها بالقانون وجعلها موقوفة على تصديق سلطة أعلى منها . فماذا يريد جنابه بالتعديل على هذه الصورة ؟

أيريد أن يصدق مجلس النظار على حكمها . أويريد أن يصدر أمر خديوى كريم بالتنفيذ ؟

ان كان الاول فماهى مزية تصديق مجلس النظار والنظار أنفسهم يتلقون الاوامر من قصر الدوبارة بلا مراجعة

وأما الثانى فلا ينبغى أن نتخيل وقوعه وكيف نتخيل ان جناب اللورد وهو أكثر الناس أدبا مع خديو مصر أن يفكر فى أن يصيره جلادا

والا فأى سلطة يعنى اللورد أن تصدق على أحكام المحكمة المخصوصة بعد

على انه بما جهر به الآن يخالف نفسه في سنة ١٨٩٥ . ولا ريب ان ذلك لما ظهر له من عظيم الخطأ في اطلاق المحكمة المخصوصة من القيود القانونية

فهل يريد أن تمضى عشر سنوات أخرى ليظهر له خطأ التعديل الذى يراه الآن ثم يصلحه

اننا من المصريين الذين يريدون الحق لنا أوعلينا ونريد أن نخاطب جناب اللورد بالروية والتعقل كما نريد أن يفهم كلامنا بالعدل والانصاف فنرفع الى مقامه السوأل الآتى

هل مشى جناب اللورد ذات ليلة في شوارع القاهرة مثلا ورأى حالة الجند الانكليز بعد مايثملون أوعلى العموم بعد الساعة الحادية عشرة ليلا . هل رآهم كيف ينطلقون في الشوارع عدوا وكيف يقفزون على مركبات الناس وهى سائرة وكيف يتحككون في المارة وكيف

يشوه المفرطون فى السكر منهم محاسن المدنية بعربدتهم ؟ ؟

فاذا عرض خلاف بين هؤلاء الجنود وهم على ماوصفنا و بين أحد الاهالى أيكون من العدل أن يحاكم الوطنى الصاحي المعتدى عليه اذا دافع عن نفسه حيث يطلق سراح الجندى السكران المعتدى . ثم هل يكون العدل بعد ذلك ان تكون محاكمة الوطنى امام محكمة مخصوصة ؟

ان هذا ليس هو العدل الانكليزى الذى تريد انكلترا أن توجد تأثيره وتسير على نظامه فى مصر . وليست هذه الطريقة مما تملك به قلوب الامم

واذا كان مانعتقده حقا فاننا نؤمل ان يكون زمن العنف قد فات وأن اللورد يأخذ الامة بالحسنى رويدا رويدا . ونؤمل ان يكون أول حجر يضعه فى اساس بناء السلام الجديد الغاء دكريتو سنة ١٨٩٥

(المؤيدفى ٢٩ شعبان سنة ١٣٢٤ - ١٧ اكتوبر ١٩٠٦عدد٤٩٩٥)

٥

احوال المستشارين

فى ادارة الحكومة الخديوية

قبل أن نتكلم عن المستشارين نذكر كلمة عن حضرات النظار المصريين لانهم عند ذكر اولئك اقرب الناس خطورا بالبال

ومعلوم ان مركز النظار فى حكومة غير نيابية يختلف كثيرا عنه فيها . فهم فى الاولى وكلاء الحاكم المطلق يديرون باسمه شؤون الرعية و يضعون بامره القوانين التى يتقاضى بها الناس بعضهم بعضا . وفي الثانية وكلاء الامةوسطاء بينها و بين الملك . وفى كلتا الحالتين لهم اختصاص الآمر الثانى والمنفذ الاول

لكنهم في مصر على غير هذا الحال. كل مافي ايديهم مطابع صغيرة يطبعون بها الاوراق التى تعرض عليهم من قبل المستشارين او رؤساء الاقلام الخاضعين للمستشارين مباشرة. وقد لا يجسر الواحد منهم على قراءتها حتى لايناجي نفسه برأى في موضوع

هذا شأنهم في دواوينهم وأما هم في الوكالة الانكليزية فزائرون مستمعون لكل مايقال لهم . وفى سراى عابدين مبلغون لما يسمعون ان كلفوا بذلك وأما هم في مجلس النظار فكما وصفهم المغفور له الشيخ محمد مفتى الديار المصرية سابقا

والذى يجبر خواطر الامة من قبلهم أنهم فى مرتباتهم غير مغبونين ولا مضغوط عليهم فيها كما هم في الاعمال والآراء . وأكبر فضل لهم أنهم صابرون على حال واحدة من سنة ١٨٩٥ الى هذا اليوم ليس بينهم من ضج أواشتكى مراعاة لظروف الاحوال التى قضت بها سلطة الاحتلال

ولا نبحث في هل هم مصيبون أومخطئون الآن ولكن نقول ان تصويرهم للفقراء بالحقيقة التى تمثلهم تماماً تبين لهم ماهى وظائف واحوال المستشارين فى دواوين الحكومة المصرية

فالمستشارون هم اقطاب الحكومة التى تدور رحى العمل فى كل ديوان على قطب منهم امرا ونهياً . اشارة وعبارة . محوا واثباتاً . ولوانهم كانوا يعملون في الخفاء كما كانوا قبل بضع سنوات لكانوا اشبه بأولئك الاقطاب الذين هم في اصطلاح الصوفية يتصرفون في الكون من وراء حجب الغيب وهم مكرمون .

هؤلاء المستشارون يختلفون على جناب اللورد كرومر غدوا وروا حا ثم يجلسون على كراسيهم في الدواوين آمرين ناهين منفذين . ولوانهم كانوا متضامنين في المسؤلية لكانوا النظار من كل وجه في القاب مستشارين

نعم ان اللورد كرومر يفيض على هؤلاء المستشارين بارائه العالية وخبرته الواسعة ومقاصده الشريفة . ولنفرض بعد ذلك انه يراقبهم في التنفيذ ويتعهدهم بالمؤاخذة اذا أخطوا فمرجع الفضل فى عملهم لجنابه ولكن هل يكفى ذلك مسوغا لان يكون كل أمر الحكومة المصرية في أيدى خمسة من الانكليز ان كانوا يوما شيوخا رأيتهم بعد ذلك شبانا أولى لهم ان يترقوا في الاعمال رويدا رويدا . ثم لما يكونون من لندن ولا يكونون أو بعضهم على الاقل من مصر

هل يعجز جناب اللورد كرومر أن يجد من رجال مصر شيوخا أومن نابغيها شبانا خمسة أو بعض خمسة أهلا لان يوليهم ثقته ويمنحهم عنايته فيعمل بهم فى حكومة مصر مايعمل بالانكليز ألا يظن جنابه ان مراقبته التى هى القوة النافعة في نفوس أولئك المستشارين من الانكليز

تكون نافعة كذلك لو جعلتهم او بعضهم من المصريين

أننا نفرض هذه الفروض نظريا فلايتوهمن قارئ خصوصاً من الانكليز أننا نحاول أن نغتصب منهم وظائف خلقت لهم خلقا وأن نحظى بثقة من جناب اللورد دونها خرط عنقود الثريا خرطا . لا يظنن ظان أننا نكتب كمن يسبح فى خيال واسع فوق السموات السبع فلا ينظر فى شيء مما يجرى حوله في هذا العالم . ولكن الغرض من هذه المقدمة الطويلة العريضة أن نقول . اذا كان ولا بد من وجود المستشارين الانكليز فلماذا لا يكونون ممن يأخذون وظائفهم باليدين . ممن تدرجوا فيها سلما سلما حتى رقوا هذه الذروة التى يتسنموها الآن أوكما يقول العرب فى أمثالهم ممن حنكتهم التجارب

ان الامة لتألم أشد الآلام من تغيير أحوال الرجال الذين يتقلدون أعلى المناصب في حكومة مصر حتى جرت الشكوى على ألسنة شعرائهم فقال حافظهم

قد كان حولك من رجالك نخبة ساسوا الامور فدربوا وتدربوا
أقصيتهم عنا وجئت بفتية طاش الشباب بهم وطار المنصب

بل اذا كان ولابد من وجود المستشارين فلماذا يكون لقب الموظف مشيرا الى حقيقة منصبه . فاذا قلنا محرر جريدة لانفهم أنه مديرها أو قلنا ناظر خارجية لانفهم أنه رئيس النظار . أوقلنا (مستشار) فلا يكون هو الآمر والمنفذ معا

فلماذا أصبح هذا اللقب علما على كل القوة الفعالة فى الحكومة المصرية حتى غرس في عقول الامة من كبير وصغير وقارئ وأمى أن الامور مرهونة بارادته . فالعرائض لا تقدم الا اليه — وان رفعت الى النظار كانت من قبيل الاستشهاد كما ترسل صورها الى الجرائد. فالناظر مع المستشار الآن كالصفر على يسار الرقم

أترى أن هذا الفرق العظيم بين الناظر والمستشار الآن هو مقياس الفرق بين كفاءة هذا وذاك ؟ . ان هذا لا يقول به أحد ولكن جناب اللورد قضى من قبل وصرح في تقريره العام لسنة ١٩٠٤ أن الانكليزي ولو مرؤوسا يجب أن يكون آمرا مطاعا عند من فوقه ومن دونه فما بالك بالمستشار الذى جيء به كالوصي على كل من فى ديوانه من الناظر الى الحاجب

ثم اذا كان ولا بد من أن يكون المستشار انكليزيا شيخا كان أوشابا مجربا أوغير مجرب . فلماذا هو متأله في منصبه . متأله في معاشرته . فلا يوجد بينه و بين أعيان الامة أقل صلة . وقد يقضى في مصر عشرة أعوام فلا يعرف من أحوالها مايعرف السائح في فصل الشتاء . لان المستشار يترفع عن أن يخالط كبار أعيان الامة ولو ليعرف من أحوالهم شيئا بينما السائح يستفسر عن كل شيء أبهم عليه ولو من ترجمان أوخادم فندق

ثم يرى أولئك المستشارون أن من حقهم أن يستأثروا بسلطة التشريع والتقنين و بسلطة العزل والتعيين لا بين الموظفين الذين يشتغلون معهم و يعرفون بعضهم شخصيا فقط . بل حتي بين صغار العمال الى حد عمد البلاد ومشايخها وخفرائها

وهذا التخبط والفوضى في ادارة البلاد اللذان لم يعرف لهما مثيل في تاريخ ادارة مصر قبل الآن . بل هذا اختلال نظام الامن العام الذى ضج منه واشتكى جناب المستر متشل مستشار الداخلية فيما كتبه ملحقا لتقرير جناب اللورد كرومر العام الماضي مرجع البلوى فيه لتلك الارجوحة الصبيانية التى يركبون عليها العمد و ينزلونهم عنها كل يوم نصبا وعزلا حتى كرهت الاسر الطيبة هذا المنصب واسترذلته وحتى صار أكثر صعاليك البلاد عمدا فأصاب حلوق خيار الناس شجاها واستفز سخيمة الانفس اللئيمة هواها وكان من وراء هذا التنازع المستمر بين السرى والوضيع ومن نمو الاحقاد النفسية التى تشعبت في طبقات الاهالى المختلفة مانراه اليوم من الفوضى العامة في البلاد . ولا يزال ضرعها يدر بالفساد بعمل أولئك الصنائع الذين هم أقرب لحظيرة المستشار من كل أحد

أصبح من القضايا البديهية عند الانكليز ان كل عيب أوضعف فى الادارة المصرية منشؤه صفات فى العاملين من المصريين أو في طبيعة الامة . فهم يشخصون كل علة تعرض عليهم بهذا المنظار و يصفون الداء بقدر مايصل اليه حذقهم بعد ذلك التشخيص . ولا حاجة لان نقول ان الطبيب يصيب فى العلاج بقدر مايصيب فى التشخيص . فان أخطأ فيه كان علاجه علة أخرى وكلما توالى الخطأ أعضلت العلل فاما أن يفطن أهل المريض لخطل الطبيب فيدركون مريضهم بطبيب أمهر أوجملة أطباء يشخصون الداء بروية أعلى و بحث أدق ليكون العلاج مطابقا — أولا فيهلك المريض ويكون الطبيب القاتل له غيرمسؤل فيه

أما في مصر فطبيب الادارة العمومية فيها ليس خبيرا بها حتى أنه لم يسبق له أن يكون بمثابة التومرجي بجانب الطبيب . وقد عهد له من أول الامر أن يكون طبيبا بكل معاني الكلمة طبيبا شرعيا . طبيبا للامراض الباطنية . طبيبا للامراض الجلدية . طبيب أسنان . جراحا . الخ الخ وهو يشخص كل علة و يصف لها الدواء . الرأى كله له . والامر كله منه واليه . وان استمد من قصر الدو بارة رأيا فانما يكون الجواب بقدر السؤال . وكم فتوى يصدرها المفتي خطأ بناء على استفتاء خطأ . . . . .

ألم يأن للذين في قبضتهم روح حياة البلاد وهم يتصرفون فيها تصرف السيد في ملكه أن يتدبروا في سلسلة تشخيص علل الفساد فى ادارة مصر ليروا ان كان الداء العضال الذى يتأصل الآن في مفاصل الامة و يدب في الجسم دبيب السل فى الرئة هو من الامراض الذاتية فى الامة أو من أغلاط الطبيب المتكررة ؟ ؟

ألم يأن لاهل المريض أن يرفعوا صوتهم في وجه الطبيب قائلين له كف قليلا عن العبث بالمريض بلا روية ليدعوا ساعة من الزمان جماعة من مهرة الاطباء يشخصون علل مريضهم التى تراكمت عليه فيوقفون الجاهل المتطبب عند حده

ألم يأن لجناب اللورد كرومر أن يطيل نظره في حالة هذه الامة التعيسة و يسترجع ساعة من شبابه المجيد فيعمل بعزيمة حازمة وحكمة حاسمة عمل الطبيب الماهر الذى ندب نفسه لتشخيص العلة الحقيقية التى أصابت جسم الامة المصرية وكادت تودى بحياتها بين غرور الطبيب وجهله . انه لو يفعل ذلك مرة فقد لايرى مخلصا للامة من ورطة الاختلال الادارى التى سقطت في مهواتها سوى ان يهبها دستورا نيابيا صالحا يوضع بعده بناء كل عمل ادارى أوقضائى على اساس متين واذا لم يفعل ذلك كان أكبر مسئول عن مصائب مصر الآن وعن أضعافها في المستقبل والتاريخ أعدل حاكم

(المؤيد في ٣٠ شعبان سنة ١٣٢٤ ـ ١٨ اكتوبر سنة ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٦)

٦
التعليم ونظارة المعارف

«ان التقدم فى المعارف والعلوم يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الامة على اختلاف طبقاتها»
«تقرير اللورد كرومر سنة ١٩٠٣»

ان سياسة التعليم التى جرت عليها نظارة المعارف المصرية وينفذها المستر دانلوب بغلظة وصلابة . هى أن تكون المكاتب الابتدائية رافعة لامية الذين يتعلمون فيها القراءة والكتابة بقدر الامكان . وان توهم الحكومة بأنها راغبة في نشر التعليم الصناعى وهمتها فى ذلك واهنة . وان يكون التعليم الثانوى والعالى لغاية واحدة هي أعداد الفئة اللازمة لخدمة الحكومة من الشبان ليس الا

فالتعليم الرسمي هنا يقتصر على حاجة الامة من بعض وجوهها لا كلها ويقصر نفعه علي فريق قليل منها فلا يشمل كل الطبقات . ولقد نادى مجلس شورى القوانين حتى بح صوته في سنين كثيرة يطلب من الحكومة عرض لوائح التعليم العامة عليه ليبدي رأيه فيها فتقتصر الحكومة فى الجواب على أنه ليس من اختصاص مجلس الشورى نظر لوائح التعليم

وهب أن القانون الاساسى لهذا المجلس لا يمنحه هذا الحق وان كان هذا غير صحيح أفليس الابناء الذين يتعلمون في مدارس الحكومة أبناء أعضاء الشورى وأبناء أقاربهم وأبناء منتخبيهم. الذين ينوبون عنهم فى نظر القوانين التى تحكم بها البلاد . اليس لهؤلاء حق أن ينظروا فى القوانين التى يعلم بمقتضاها أبناؤهم

ليس في البلاد مدارس أخري يمكنها أن تعطى الشهادات الرسمية التى يوظف بمقتضاها المتخرجون أو يدخلون بها المدارس العليا حتى يقال لاعيان البلاد انكم أحرار فى أن ترسلوا أبناءكم لمدارس الحكومة أولا ترسلوا مادامت هى لا تريد تطبيق نظام التعليم على رغباتكم انها فظاظة لا معنى لها . فالاموال التى تنفق على التعليم من خزينة الحكومة هى أموال

الامة . والاموال التى تؤخـذ اجرة للتعليم من آباء التلامذة هى أموال الامة . والموظفون الذين يقبضون على زمام ادارة التعليم في نظارة المعارف انما يأخذون مرتباتهم من أموال الامة وميزانية الحكومة التى تقرر نفقاتها كلها انما تقدم للمجلس ليعطي رأيه فيها فاذا جاء الى باب (نظارة المعارف) وقال أعضاء المجلس اننا نريد أن نعرف الخطة التى تجرى عليها هذه النظارة فى تعليم أبنائنا لندل الحـكومة على قصـدنا من تعليمهم ولنوفق بين خطتها وهـذا القصـد بخبرة رجالها الفنيـين ـ قالت لهم بلسان دانلوب المتأله في تلك النظارة ويريد أن يعبد فيها من موظفيها ـ اننا لانراكم أهـلا لان تنظروا فى نظام تعليم أنتم جهـلاء به فلا تطلبوا مالستم أهلا له

يتلخص من كل هذه الفظاظـة أن الحكومـة لاتريد الا مايريده قصر الدوبارة من سياسة التعليم . وقصر الدوبارة بمثابة وصى على قصر أغنياء ليس لهم مجلس حسبي يراقب أعمال الوصى ويجعل حدا لرشـدهم . فلا الوصى يحب أن يخرجهم من هـذه الوصاية ولا القصر قادرون بذاتهـم على الخـروج ولا رقيب فوق الوصى يحسب له الوصي حسابا . والسر كله في العلم والتعليم لانهما ينبوع رشد القاصرين

وكلما ارتفع صوت الامـة بالشكوى من نضوب هـذا الينبوع وصلاحيته أدير فانوس السياسة السحرى بلعبة من ألاعيب الماهرين محوا واثباتا فى بروجرام التعليم فمرة يجعـلون مدة التعليم الثانوي ثلاث سنوات بدل خمس وأخرى يعدونه أربعا . وتارة يكتفون بالشهادة الابتدائية في الاستخدام وأخرى يخترعون شهادة أهليـة أرقى منها بقليل . وآنا يشتغلون بتعديل درجات الشهادات للمرتبات وآخر يعدلون في المرتبات لتلك الدرجات . وهلم جرا . كل ذلك ليحصروا تيار التعليم ورغباته فى مجرى الاستخدام ليصـدوا النفوس عن تعلم العلم لذاته

فسياسة التعليم الحالية مقصورة على أمرين . أعداد الطلبة لخدمة الحكومة في الوظائف الصغيرة وتمرين النفوس على تمكين هذه الرغبة فيها لايلافها موت الارادة وفقدانها . أما التهذيب وتربية النفوس بما يعليها فمفقودان من مدارس الحكومة بالـكلية

وأكبر لعبة أظهرتها سياسة الاحتلال في التعليم لتبهر بها أنصار الوطنيين والاجانب لعبة

انشاء الكتاتيب فى البلاد لعبة لايستطيع انسان أن يقف فى طريقها لانها فى الجملة مظهر من مظاهر نشر العلوم الابتدائية في البلاد ولواقترنت بالاخلاص لكانت بمثابة وضع الحجر الاول فى بناء تعميم التعليم الاجباري فى الامة بأسرها. اذ لايمكن أن يوجد التعليم اجباريا عاما قبل أن توجد المكاتب المنتظمة منتشرة فى كل قرية و بلدة . ولا توجدهذه المكاتب حتى تؤسس دورها على نظام صالح لها . ثم يكون من مصلحة الامة أن ينتشر التعليم بين أكنافها فيعم شيأ فشيأ حتى يكون يوماما اجباريا عاما كما هو في كل أمة راقية الآن

ولكن المعيب فى هذه اللعبة أنها أقرب للرياء منها لشرف القصد أوعلى الاقل أنفذت بطريقة هى الرياء كله فترك لكل مدير أن يتنافس في حض الاعيان على انشاء المكاتب كما يشاء . وأكثر المديرين تزلفا لسلطة الاحتلال من نهض للعمل قبل جاره ومن أوجد من المكاتب أكثر فى برهة أقل غير مبال أن يدفع العمد الى أخذ المال من جيوب الناس بالرغم عنهم

أظهر اللورد كرومر رغبته في انشاء هذه الكتاتيب وأعلن هذه الرغبة بأجلى بيان فى الخطبة التى ألقاها على أعيان الفيوم في العام الماضى وفي محادثاته الكثيرة مع المديرين وهو يطوف في ارجاء القطر جنوبا وشمالا

ثم جاء صوت مستشار الداخلية بعد ذلك حاكيًا لتلك النغمة مرددا ذلك اللحن المطرب على اسماع المديرين فى كل فرصة بعد ذلك

فخال بعض المديرين أن الفرصة سانحة لاظهار عواطف الولاء الصادق لجناب المستشار مباشرة وجناب اللورد بالواسطة . فهب هذا وذاك الى جمع الاكتتابات على طريقة جمعت بين التنافس والضغط فاضرت بالكثيرين ممن كانوا يتنافسون وبالاكثرين ممن أجبروا على دفع مافرض عليهم وهم غير قادرين . وكان الوقت الذى هبت فيه تلك النهضة غير مناسب لاستدرار المال فاضطر بعضهم أن يقترض المائة بربا عشرين وثلاثين وأربعين

وعادت للعمد سلطتهم الاولى في الضغط على الفقير لاستنزاف جلده قبل جيبه فتحول الخير للشر من وجهين . وجه الرياء من جهة ووجه الارغام من جهة أخرى

وبالجملة صارت النهضة التى كان يجب أن تكون شريفة من كل وجه لانشاء الكتاتيب

أشبه عند بعض الاهالى (وكثير ماهم) بحوادث الاوبية المضرة

ونحن نعلم ان كثيرا من مضار تلك الطرق التى استعملت في سبيل هذه النهضة قد عرض على قصر الدوبارة وتلافى شر بعضها بارشاد المستشار الى مايجب أن يعمل فيها حتى كان من مغبة ذلك ان أعيدت أموال أعيان مديرية الشرقية التى جمعت باسم انشاء الكتاتيب وحبست في خزينة البنك أشهرا معدودات الى أصحابها

ولكن الغريب في أمر الوكالة الانكليزية أنها لم ترد أن تضيع هذه الفرصة التى انتهزها بعض المديرين والاعيان رياء بلا استفادة مغزى سياسى لها منها . وسرعان ماوفقت بين زيارة صاحب السمو ولى عهد الدولة الانكليزية و بين حظوة هيئة مجلس شورى القوانين بمقابلة سموه ليقول سمو ولى العهد فى خطبته كلمة شكر لنواب الامة على نهوض أعيان البلاد بنشر التعليم الابتدائى وتعميمه في القطر. ثم أعطى رئيس المجلس خطبة يومئذ ليقولها بين يدى سموه وفيها الاقرار على هذا الشكر واعتراف بصواب سياسة التعليم الجارية فى البلاد . ولكن أعضاء المجلس لم يريدوا أن يكونوا بوق قصر الدوبارة فى هذه المرة كما كانوه في السودان فحوروا فى الخطبة التى أعطيت لهم وأشاروا من طرف خفي الى النقص العظيم الذى تشكو منه الامة في طرق التعليم . وانبنى على هذا التحوير أن خطبة رئيس المجلس لم تترجم بين يدى سمو البرنس من العربية الى الانكليزية كما ترجمت خطبته من هذه الى تلك حتى لا يسمع سموه تأنيب قصر الدوباره في وجهه

والخلاصة ان سياسة التعليم الجارية في البلاد الآن غير مفيدة لتكوينها أمة ينبغ منها العلماء في كل فن ولا هى سائرة للامام تقدما لان « التقدم في المعارف والتعليم يتوقف على كون نظام التعليم وافيا بحاجات الامة على اختلاف طبقاتها » كما قال اللورد كرومر

(المؤيد فى ٢ رمضان سنة ١٣٢٤ ـ ٢٠ اكتوبر ١٩٠٦ عدد ٤٩٩٧)

قصر الدوبارة - بعد يوم الاربعاء

سلسلة مقالات بمناسبة استقالة جناب اللورد كرومر

« ما احد بألغ في نصيحة الحكام الا استغشوه »
« لصرفه اياهم عما يحبون الي ما لعلهم يكرهون »
« يحيي بن اكثم »

فهرست المقالات

(١)

اللورد كرومر . ولماذا اختلفوا على اكرامه

لاجدال فى أن الامـة المصرية ممتازة باكرام ضيوفها الى حد تجاوز المعروف عند الشعوب الاخري . وبالانصاف الى حد المغالاة فى تقدير قيم العاملين لصالحها أيا كان جنسهم ونحلتهم . وبالعطف على الاجنبي الى حد الاسراف أو نسيان الذات في الجرى معه على رغباته . متساهلة حتى كأنها خادعة وليست كذلك . ولينة حتى يخيل للطامع فيها انه يكاد يلويه بيديه . وبعيدة عن التعصب بمعناه المعروف الآن الى حد أن ترمى بفساد الوطنية . تذكر الجميل لصاحبه حتى كأنه محييها وتبذل فى سبيل انعطافها عليه النفس والنفيس

بالامس قام أحد أعضاء المجلس البلدى الاسكندرى مقترحا أن يطلق على أحد شوارع المدينة اسم الشاعر الايطالى الشهير كردوتشى ـ لا لانه خدم مصر بعمل ولا لكونه نظم فى محاسنها قصيدة شائقة مشوقة للسياح مثلا ـ ولكن لانه طليانى وفي الاسكندرية جماعة كثيرة من الطليان وفى القومسيون البلدى بعض الاعضاء من القوم

فأجيب المقترح الى ماطلب

ولدى شيوع نبأ استقالة سابا باشا من رئاسة مصلحة البريد وردت التلغرافات من الوطنيين على الجرائد الوطنية ملتمسة بقاءه .ونشر المؤيد رسالة من مصرى يقول فيها «ان اشاعة تعيين برتون بك خلفا له مخالفة لما ينادى به اللورد كرومر من انه باذل جهده لتولية الوطنيين المراكز العالية

ان كردوتشى طليانى وسابا باشا سورى وهـذه خطة المصريين معهما أكبر دليل على سلامة النية ونسيان الذات عند تقدير الرجال وعلى اكرام الغير الى حد الاسراف

فما بال الامة المصرية مختلفة الآن على اكرام اللورد كرومر وهو بلا جـدال قد نفع القطر أكثر من سابا باشا ومن شيعة كردوتشى

ومهما كان رأينا في موضوع وداع اللورد واعتراضنا على الصائحين ضد مكرميه بأنهم يتجاهلون للمصرى صفاته الطبيعية النزاعة الى مكارم الاخلاق ـ ومهما بلغ انصافنا الرجل

في تاريخه فلا غرو أن في الامر غير مايتمنى محبوه وشيعته ومنصفوه

مابال اللورد بعد أن قضى ربع قرن فى القطر ــ ترقى في غضونها من قنصل لدولته لا يمتاز على غيره من القناصل الى صاحب السلطة القيصرية فى قصر الدوبارة حيث لا ينكر منصف أن القطر في عهده و بعظيم درايته وعميم عنايته ادرك منزلة سامية في أموره المالية وقد توفرت فيه أسباب الرخاء ؟ ــ ماباله بعد أن قضى ذلك الامد الطويل على هذا الجاه العريض صاحب الامر والنهى والكلمة المطاعه والاشارة الصداعة يغادر البلاد وحوله ضجيج منقسم الى نغمتين . نغمة الاجانب بين مادح ومطر راغب في تخليد ذكراه بانشاء نصب له فى العاصمة والثغر ونغمة الوطنيين تجمع بين انصاف اللورد وانصاف الوطنى حرم من حقوقه ــ و بين متطرف لا يرى للرجل حسنة الا بين سيئات . وأقل مايقال عن مظهر الامة بين تلك النغمات المختلفة أنها غير راضية عن الرجل رضاء كاملا . ومن يقل غير ذلك فهو عن جادة الحق الصراح بعيد

بعد خمس وعشرين سنة على الاحتلال وقد بلغ الغاية القصوى من السيطرة والسلطان يبرح عميد وادى النيل والامة لا تحفل بنداء الداعين للاحتفال بوداعه كما ينبغي . فما السبب في ذلك ؟ ؟

***

الاسباب كثيرة مجموعة الى سبب جوهرى هو أن الامة لم تتلاش حيويتها بجهالتها الماضية كما يزعمون ولم تفسد وطنيتها بمطالبها السابقة كما يقولون فلم يغنها من أمرها أن صار ثمن الفدان من أرضها الى ١٠٠ جنيه أو ٢٠٠ جنيه بل ولا يغنيها أن يصير الى الف لأنها تريد أن تكون غنية فى الادبيات كما هى غنية فى الماديات ملية من الرجال والعقول كما هي ملية من الاموال والفضول

ولكن اللورد الذى منحها على أكثر مايعزى له ثروة ورخاء باليد اليسرى . سلبها أسباب رقيها الادبى باليد اليمنى فسلبها بذلك آمالها في المستقبل والامال زهرة الحياة البشرية في هذا العالم

على أن مصر قد أصبحت غنيمة بمال أوروبا وبحركة المضاربين على الاكثر . فبقاء

ثروتها رهن اشارة مصدر تلك الثروة . وأوضح شاهد على ذلك أفاعيل الأزمة المالية الحاضرة التى منشؤها حبس البنوك أموالها فى صناديقها وتواطؤها على أن تقبض أيديها فلا تبسطها زمنا ما فسرعان ماشعرت الامة بالعسر المالى وسرعان ماتراجعت أثمان العقار للوراء وهو رأس مال مصر فان أضر به حادث ألمت بها الكوارث

ان اللورد كرومر قد منحها ثروة زائلة ـ ولا يثبت الزائل الزائل ـ وهى تريد ثروة ثابتة ضمانتها الوحدة الوطنية التي يريد اللورد ذهابها من الوجود

رأى بعض الحكماء رجلين لايفترقان فسأل عنهما فقيل انهما صديقان قال فما بال أحدهما غنى والآخر فقير ؟؟ . فما بال اللورد كرومر الذى هو ثمرة أحزم وطنية فى العالم بنيت على أشرف مبادئ التضامن الجنسى يريد لنا أسوأ المذاهب في الوطنية الذاهبة بالمصريين الى الفقر المدقع من خيرات بلادهم ويريد أن تكون للاجنبي علي طرف التمام.

كذلك حال مصر مع انكلترا على عهد اللورد كرومر . تصادقتا خمسا وعشرين سنة فلم تفترقا والاثنتان علي مثال ذينك الغني والفقير . احداهما غنية باستقلالها حتى لقد أفاضت من فضلات خيراته على مستعمراتها الى حد أن منحت الترانسفال استقلالها الاداري بعد ان طافت بارضها دماء رجالها والاخرى فقيرة من هذه الثروة البشرية مستعبدة فى كل أمورها وقد بلغ من فقرها المدقع فى هذا الباب أن اللورد فى آخر كلمة عنها جردها من كل أهلية للحكم الذاتى حاكما عليها بالعقم الابدى

فما بال انكلترا بعد ما كررت مواعيدها الحلوة المعزية تركت عميدها العظيم فى وادى النيل يختم أعماله بالتصريح بأن الاحتلال باق فيه الى الابد وان أهليه يجب ان يكونوا غير أهليه وان وطنيتهم يجب ان تكون كشكولا ليس لها في مجموعات الامم مثيل

ومن تلك الاسباب ان جناب اللورد كرومر جاء مصر مرشدا فصار حاكما مستبدا يخرب مبانى الآمال ويقيم على الجبل فكأنه لم يقتبس من نابليون الا قوله le le veux أى(أريد)وارادة كرومر في مصر يصدق فيها قول مادام ريموسات في ارادة نابليون قالت(كان اذاقال (أريد) دوى صدى عزمه فى جميع انحاء التويلرى » فكان جناب اللورد كرومر يمد يده من قصر الدوبارة الى سماء مطامحه ليدرك نجومها وهو فى تطلعه هذا

يغفل عن التقاط الازهار الكائنة بجانبه فيخسر هذه ولا ينال تلك.

انه لم يعط انكلترا في ٢٥ سنة ماطلبته وأملته منه . لان انكلترا لما احتلت مصر لم تعلن انها تعطيها ثروة فقط بل صرحت انها ترقى بها الى مصاف الامم الحية وان تهذبها حتى تودها هذه الامة وتحبها وتصير نصيرة لها في الشدائد . وهذا معتمدها يزايل مصر بعد ٢٥ سنة والامة المصرية مطرقة برأسها حيرانة بين أن تجاهر بنفرتها من سياسة الراحل ـ والادب يمنعها عن ذلك ـ و بين أن تشترك مع الاجانب في مظاهرات الاكرام والاعجاب ـ وكرامتها تحول دون مايريدون منها . فاذا أكرمه الاجانب فلانه أجزل لهم الخير وجعلهم سادة البلاد ولانه ختم حياته السياسية بعرض مشروع خطير مفيد لهم والغاية منه جعلهم أصحاب هذه البلاد تحت راية انكلترا بعد ان كانوا ضيوفها

لم يخدم اللورد الامة المصرية الامن جهة الثروة فاشترك في التنعم بها الاجانب بل نالوا القسط الاوفر منها ثم هو يريد أن يجعلهم أصحاب الامر والنهي فى ادارة مهام البلاد

يعود جنابه الى انكلترا فماذا يقول لملكه وحكومته وأمته ؟ لقد ذهب المار يشال ناى من قبله وقال للويس الثامن عشر (سآتيك بنابوليون فى قفص من حديد) ولكنه لم يفعل وجناب اللورد قال لملكه وحكومته وأمته منذ عشرات من السنين (سآتيكم بمصر تحفة راضية خاضعة) ولكنه لم يفعل . انه باقراره الاخير يعود الى انكلترا فلا يقدر أن يقول الا هذا ـ « بعد سياسة ٢٥ سنة لاتستطيعون أن تأمنوا على دوام نفوذكم في مصر الا اذا ضاعفتم السطوة وعززتم جبروت السلطة و زدتم جيش الاحتلال على الدوام وضربتم كل من عارضكم ضربة قاضية تخمد أنفاس الحرية التى منحتها صحف هذه البلاد غلطاً والغلط مردود على صاحبه »

***

من أول يوم تولى فيه اللورد كرومر سلطة الدولة الانكليزية وادارة مصالحها في مصر نظر الى الامة المصرية وقرر بعد تدبر قليل واختبار أقل ان هذه الملايين يجب أن تساس بالعنف وأن تساق بعصا من حديد . وظل هذا رأيه حتى الساعة الاخيرة من وجوده فى قصر الدوبارة فكان كلما ظهر له ان في البلاد أمة لها شيء من الحياة رفع سيف حدته وطعنها طعنة يريد

تقضي على آمالها

علم أن مصر في حاجة الى العلم فلم يبدأ بتعليمها الا في أواخر مدته وبطريقة لا ترى لها غلة . فحض الوجهاء على انشاء الكتاتيب الصغيرة واذا به يرى هذه الامة تطلب لنفسها علما أرقى وجامعة مصرية كبيرة فأعرض عنها واستعمل أتباعه للاشارة بطريقة هو غير مسؤول عنها رسمياً الى أن قصر الدوبارة السياسى غير راض عن انشاء قصر علمي وطني

في مصر نظارة للمعارف لكنها غير نافعة كما تقضي حاجته مصر لأنها لا تجرى في نفعها على نمط يؤدى الى الخير الصحيح العام فان التعليم الذى يصل الى الاذن فقط هو من قبيل تمتع الرجل بطعام شهى ولكن حلماً فى نومه فاذا انتبه لا يجد قوتاً أمامه ولا يجد من قوته العقلية مايدل على أنه أكل حقيقة

كان اللورد كرومر كل مدته فى مصر معارضاً لكل ماتريده مصر من مطالب الرقى الادبي فلم يؤيد لها طلباً منذ ٢٤ سنة ولا أحسن بها ظناً ولا رد عنها تهمة بل كان أول رجل مسموع الكلمة قال عنها قولا منكراً واتهمها بتهم غريبة وغرس في عقول أوروبا انها أمة قاصرة متعصبة ليس فيها رجال اكفاء ولا تصلح أن تكون أمة أبدا

قال عنه قومه انه (عين مصر وقلبها) وأصابوا كثيراً من حيث اهتمامه بمصلحة دولته وقومه فهو لم ينظر الى مصر مرة الا ليزيد قيودها شدة ولا شعر بانعطاف اليها الا ليزيدها دنواً من العبودية لحكومته وقومه

وأى دليل يريده الناس منا على قلة انصافه لنا أعظم من اتخاذه ذلك الكتاب الذى لا امضاء له واعتماده عليه وجعله من المحررات الدولية الرسمية التاريخية وتسجيله بواسطته ان الامة المصرية لا وطنية لها وانها متعصبة لدينها تعصبا مضرا بالمسيحيين

فهل يستغرب منصف بعد هذا ان الامة المصرية لا تقيم له التماثيل والولائم

ولكن جناب اللورد يعلم من الاحوال الحاضرة ان عقلاء هذه الامة التى أساء كثيرا اليها فى جملة احساناته يرون من الحكمة أن يحسنوا وداعه وتشييعه ولذلك هم يتظاهرون أفرادا بما يقضى به الذوق والادب

لم يعلم جناب اللورد مع سعة اختباره ان العنف كالعاصفة الشديدة يزيلها المطر وأما

الرقة واللين فانهما كالمطر الخفيف يصل الى الاعماق فينعش كل غرسها بالحياة التى تنمو مادام السحاب يتعهدها برزازة المفيد . الا أننا كنا نود أن يبرح جناب اللورد القطر المصرى مودعا من مجموع الامة وقد كان ذلك سهلا جدا لو أراد أن يكون وابلا نافعا لارعدا قاصفا (المؤيد في ٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٢ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٦)

٣

السياسة الثابتة وكيف تكون

اتفقت الدول الاوربية المستعمرة الآن في الشرق على دعوى واحدة كل يدعيها وكل يقول انه محسن فيها عملا

أما الدعوى فهى انهم يقولون اننا نحكم الشرق لخير أهله . وأما الاحسان ففيه شك لان طرق الحكم مختلفة بينهم الى درجة التباين فى المقدمات والنتائج

وعلى قواعد هذه الدعوى احتل الانكليز مصر لخير أهليها كما أعلنوا ذلك مرارا وهم يقولون حينا فحينا اننا موجودون لتحسين أحوالها من كل وجه واننا نعد المصريين ونؤهلهم لحكم أنفسهم علما وعملا

وقد مضى على هذا القول ربع قرن والانكليز يعملون وفي أيديهم كل القوى والسلطات وتحت أمرتهم كل الموظفين المصريين حتي النظار أنفسهم سامعون مطيعون لما يأمرون

فأما آثار عمل الاحتلال فقد ظهرت فى كل مايفيد الوصاية ويظهرها تامة لاشك فيها . ظهرت بأن الآمر والناهى انكليزى والمأمور في الحالتين مصرى ولكنه مسلوب الارادة لايستطيع أن يقول ولا أن يفعل غير مايقولون

ظهرت آثاره فى تحسين كثير من شؤن البلاد كما ظهرت في ملاشاة أهلية العمال المصريين التى كانت نتيجة قوة الضغط عليهم واعتبارهم مجرد آلات تتحرك ولا تريد

فبعد خمس وعشرين سنة تقدمت البلاد كثيرا وتأخر أهلوها أكثر في باب اعدادهم لحكم أنفسهم . وهاهو اللورد كرومر مزمع أن يفارق وادى النيل الفراق الاخير وليس بين ضفتيه من يمارى في هذه الحقيقة التى سيراها خلفه المقبل ناصعة ولكنا لا نعلم ماهى

سياسته في هذا الضرب من الاصلاح الذى هو كل مايطلب المصريون

***

على انهم يقولون ان استبدال اللورد كرومر بالسير غورست لايغير شيئاً من سياسة انكلترا في مصر وغاية مافى الامر كما قال اللورد في خطبته التى ألقاها في يوم ٢٧ يناير سنة ١٩٠٥ بمناسبة الاحتفال بفتح ميناء (بور سودان) ان انكليزيا يذهب وآخر يأتى مكانه . بل اتفقت الروايات كلها على ذلك حتى الآن وصرح بذلك السير ادوارد غراي ناظر الخارجية الانكليزية لسان حزب الاحرار الرسمى كما صرح بمثله المستر بلفور رئيس حزب المحافظين ولحنت جرائد انكلترا هذه النغمة على ضروب شتى

آمنّا بالله وباليوم الآخر . وبأن سياسة انكلترا ثابتة لاتتغير. ولكن ماهى هذه السياسة الثابتة ؟ ؟

فقد بدأ الاحتلال بوعد صريح في انه مؤقت وسينقضى متى استعدت البلاد لان تحكم نفسها . وتلا ذلك الاعلان بأنهم عاملون مجدون لترقية أهلها لأن يتولوا شؤونهم بأنفسهم وبعد ثلاث عشرة سنة من الاحتلال أى في سنة ١٨٩٥ قال اللورد كرومر في تقريره عن مصر « ان القاعدة الاساسية التى بنا عليها الاصلاح فى مصر يمكن تلخيصها فى كلمة واحدة هى « رأس أوربيه وأيد مصرية . فان الواجب علينا هنا أن لانحكم المصريين بل نعلمهم بقدر مانستطيع أن يحكموا أنفسهم » اه

وبعد اثنتى عشرة سنة أخرى أى ربع قرن من يوم بدأ الاحتلال في السياسة انتهى عهد اللورد كرومر بأقوال غامضة في ذلك ولو أراد أن يلخص قاعدة عمله الذى جرى عليه وانتهى اليه الآن لقال « رأس وأيد انكليزية وأرجل مصرية »

فما الذى يريدونه اذن من كلمة « السياسة الثابتة » وما يعنون بهذه الكلمة ؟ ؟ هل يعنون ماصرحوا به مرارا وتكرارا وجعلوا شرف بريطانيا العظمى رهن انفاذه ؟ أو يعنون بها سياسة اللورد كرومر الذى عكس آية ذلك الوعد الشريف الى ضد مغزاه فيما يتعلق بتربية المصريين وتعليمهم حكم أنفسهم ؟ . أو يقصدون بها خليط الآراء الغامضة والافكار المختلطة التى ضمنها وصيته الاخيرة في تقريره الاخير

خليق بانكلترا أن توقفنا على حقيقة ماتريد من تلك السياسة التى لاتتغير . وسواء كان غرض الانكليز الاستيلاء على مصر أو اصلاحها ماديا وافسادها أدبيًا لتبقى وصايتهم الى الابد أو اصلاحها حقيقة . ومنحها الاستقلال الادارى فالناس يتساءلون كيف تكون تلك السياسة الثابتة ؟

أنت تقدر اذا رأيت بيت انسان متهدما وهو غنى أن تزين له اصلاحه و بناءه . وتقدر اذا كان سيء الادارة أن تنصحه كصديق الى حد الارشاد القوي . وتستطيع بعد ذلك أن تزعم انه سفيه وترفع أمره الى المجلس الحسبى بصفتك أقرب أصدقائه اليه وأغيرهم على مصلحته واعلقهم بها لمناسبات عائلية اومعاملات مالية . تقدر ان تصل الى غرضك كله بالحسنى ومظاهر الغيرة الشريفة و يساعدك على الوصول لغايتك كثيرون من الناس الذين يصدقون دعواك ودلائلها . ولكن اذا ظهر بعد بلوغك مطلبك انك راغب فى اعدام اهليته و رشده الى الابد كنت في كل اعمالك بمثابة طامع مغتصب غير مشكور على غيرتك الاولى وغير مصدق فى كل ماتدعيه اخيرا

بل أنت تقدر أن تأخذ من انسان ألف جنيه باسم عمل خيرى بواسطة المحاسنة والتشويق المؤثر الى فعله . ثم تقدر وأنت قوى مستبد أن تأخذها منه بعد أن تكدره وتهينه لاي غرض كان

ولكن في عملك الاول تكون مشكورا وفى عملك الثانى تكون مشكوا ولو لم تأخذ من الالف الا عشر معشارها

فهبوا أن الامة المصرية كانت غير رشيدة يوم احتلال انكلترا هذه الديار . وهبوا أنهم يعملون بأموالها الخير لمصلحتها فقط . ولكن ألا توجد طريقة غير طريقة سحق الاهلية الذاتية تحت مواطىء الاقدام . ألا توجد وسائل حسني يمكن أن يؤخذ بها مال الانسان للخير وهو راض بأخذه ؟ ؟.

يقولون ان سياسة انكلترا المبنية على الاخذ والاستمرار فيه ثابتة . فهل الاخذ باللين واللطف والاخذ بالشدة والعنف يستويان ؟ ؟

يقولون ان سياسة انكلترا ثابتة فهل يلزم من ذلك أن تكرر أغلاط معتمدها السابق

على يد معتمدها الجديد ؟ ؟

لقد كان في وسع انكلترا أن تكون بعد مضى ربع قرن من الزمان على احتلالها وادى النيل أفضل دولة لدى المصريين وأن تكون أمة محبوبة وأن تجمع قلوب الاهالى حولها ولكن اللورد كرومر الذى تاريخه فى مصر مقرون بتاريخ الاحتلال أوهو الاحتلال كله لم يرد الا أن يترك مصر على حالتها الحاضرة غنية بالاموال في ظاهرها المعروف فقيرة فقرا محزنًا من العدة الادبية التى كانت تستطيع أن تقدر بها هذا الرجل الجليل حق قدره

نحن مع كل ما أبدينا في مقالاتنا الماضية من شعائر اكرام الرجل وتقدير أعماله حق قدرها ليس في وسعنا ونحن نبحث الآن بحث المؤرخ ونكتب كما يعطى المصور رسمه ألوانه الحقيقية الا أن نصرح بحقائق جارحة فنقول كلما ذكرت مصر فضل اللورد عليها في الماديات ذكرت اساءته لها فى الادبيات .حتى قالت « الجريدة »التى هى من عمل أقرب الناس مودة للورد كرومر يوم جاء نبأ استقالته مانصه بالحرف الواحد

« ولئن ذكر المنصفون من المصريين تقدما لمصر في أحوالها المالية والاقتصادية فانما يذكرون اللورد كرومر الذى كان أكبر مساعد على الوصول لهذه الغاية كما أننا نرى أيضاً أن حالة مصر الاجتماعية السياسية في عهده لم تزد الا ابتعادا عن التحسين الذى كان يؤمل أن يتم على يد الحكومة الانكليزية وفاء بعهدها للمصريين من تاهيلهم للاستقلال بحكومة بلدهم » اه

بل كلما ذكرت فضل اللورد من تلك الوجهة المادية ذكرت الآن انه طعن على مبادئها . وانه يحاول أن يقنع أوربا عموما وانكلترا خصوصا بأن هذه الامة الاسيفة قضى عليها سوء حظها وخبث طبيعتها وجمود عقيدتها بداء العقم الابدى فلا تستطيع عملا صالحا فى المستقبل حتى تحلم بالاستقلال . بل اذا ذكرت ذلك الفضل ذكرت أشياء كثيرة لا نفيض فيها القول لاسباب جمة

فهل تنوى انكلترا أن تكرر هذه الاغلاط علي يد معتمدها الجديد بحجة ان سياستها ثابتة لا تتغير ؟

ان الله عز وجل خالق هذا الكون هو الذى يغير ولا يتغير وهو عليم بذات الصدور

(المؤيد في ١٠ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ــ ٢٣ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٧)

٣

اختراعات قصر الدوبارة

ا التعصب والقلق

ب الجامعة الاسلامية

ج عدم كفاءة المصريين

ليسمح لنا جناب اللورد كرومر أن نضع هذا العنوان على ماكتب في هذا الموضوع لان الوكالة البريطانية التى شعارها الرسميات والاخبار الصحيحة قد تنزلت أخيرا الى اختراع تهم شائنة للمصريين لانصيب لها من الصحة ووجهت لشخص الامة سهاما جارحة كثيرة الاذى . ولو اتفق جميع أعداء المصريين على ايلامهم أشدالايلام ما استطاعوا أن يؤذوهم بمثل ما آذاهم به اللورد فى الاشهر الاخيرة

ولو كان مارمى المصريين به جناب اللورد قد جاءه من قبيل غلط الحس أو خطأ الفكر كما يحصل مثل هذا كثيراً في المباحث الاجتماعية لهان الامر على المصريين وقالوا . — أجنبي لايعلم لغة البلاد ولم يختلط بأهليها اختلاطا يمكنه من معرفة الحقائق مهما طال لبثه فيها خليق بأن تلتمس له الاعذار

ولكن تلك التهم خلقت على مايعرف الخبيرون لغاية معلومة وأسوأ مافيها أنها صدرت عن رجل ذى مكانة عظيمة وكلمة مسموعة لدي قومه وسائر الامم الغربية فأذاها مضاعف وضررها عظيم

* * *

حدثت حادثة دنشواى المحزنة وتلاها ذلك التمثيل الفظيع فصاح أحرار الانكليز في البرلمان صيحة أفزعت قلب اللورد وبلبلت لسان السير ادواردغراى فلم يجد الاول مايسكن ثائرة الانفس عليه وعلى أعوانه سوى أن يلقن الثانى أن المصريين علي يقظة تعصب خطير يخشى من شره حتى علي شمال أفريقية المعرضة لعدواه من مصر فنادي ناظر الخارجية بذلك وسط البرلمان حتى انتفخت أوداجه ولكنه زاد فى هذه النغمة حتى راب قومه فى

أن التهمة مصطنعة لغرض اسكاتهم فقط

وقد أنكر المصريون عن بكرة أبيهم حتى النزلاء بينهم هذه اللهجة المسيئة ورددت التلغرافات صدى ذلك الانكار الى بلاد الانكليز حتى دوى صداه في ارجاء البرلمان فعدل وزير الخارجية عن كلمة « التعصب » الى كلمة « القلق » والآن قد توج اللورد كرومر تلك التهم بأخطر منها وهو اعلانه ان المصريين مجردون عن الكفاءة الطبيعية ومصابون بداء عقم أبدى منشوءه كما قال في موضع آخر الجمود الدينى الذى يقف باهله الى ماقبل الف سنة للوراء لذلك لا يمكن أن يكونوا يوما مارجالا أكفاء لادارة شؤونهم فى المستقبل

فعن التعصب والقلق نقول

اذا كانت للمصريين صفة تميزهم عن بقية الامم الشرقية فانما هى صفة التساهل الدينى الذى جعلهم على اختلاف مذاهبهم متجاورين منذ الفتح الاسلامى فى المنازل مشتركين في المنافع متضامنين في الاعمال متبادلين الشعائر فى السراء والضراء وقد مرت على المصريين المختلفى العقائد ثلاثة عشر قرنا اختلفت فيها صفات الحاكمين من عدل وجور ورحمة وقسوة يشربون من معين واحد ويأكلون على مائدة واحدة وان حفظ التاريخ لبعض الطغاة الجبارين من الحكام المسلمين ادارة عسوفة فانما كان هؤلاء جبارين على الكل بعيدين عن العمل بالدين الحنيف الذي أوصى بالقبط خيراً والذى جعل عهد الفرد الواحد للقبيلة الكاملة من أهل الكتاب عهداً على الكل وفي ذمتهم وعليهم تبعته

وها قد مضي على الاحتلال نحو ربع قرن من الزمان لم يستطع أن يسجل فيه على المصريين حادثا عظيما بين مختلفى الدين منشوءه اختلاف الدين كما يحصل مثل هذا في الهند وكما حصل فى سوريا قبل بضع وأربعين سنة وكما حصل في كثير من الممالك الاوربية فى أزمنة ليست ببعيدة وحتى الآن وهذه حوادث اليونان والبلغار ورومانيا من أجل الدين من أفظع الحوادث . وليس لاحد أن يزعم ان هذا السلام الشامل مستقر بفضل قوة الاحتلال لان التعصب الدينى الكامن اذا انفجر لا تصده القوة رابضة بجانبه بل تحرشه فى كثير من الاحيان

ولكن الذى يظهر لنا من تهمة جناب اللورد كرومر المصريين بالتعصب الدينى انه

لما لم يجد في هذه الامة استعدادا لثورة في الافكار والاشخاص تساعده على قضاء اللبانة الاخيرة من مصر وقد حرج صدره من أهليها وحكومته تجاهر بأنها لاتنوى ضم مصر اليها ـ عمد الى اختراع تهمة التعصب على المصريين فقال انه كامن في قلوبهم وقد انفجر الآن . والله يعلم والانام شهود أن المصريين لم يضمروا يوما ما شرا لمحتل أو نزيل ولم يغفلوا عن واجبهم الذى يقضى عليهم بالسكون حتى لاتتخذ حركتهم سببا لانقلاب سياسى يقضى على آمالهم فى المستقبل

ولما ورد نبأ تلك التهمة فى الصيف الماضى نشر المؤيدسلسلة آراء لسراة البلادوأعيانها ونزلائها كلها داحض ومكذب لها .

فقد قال السيد عمرمكرم « اننا لم نر شيأ يدل على وجود التعصب فيمصر »

وقال الشيخ محمد بخيت « التعصب غير موجود في مصر ولا يعول على الرعاع وأما العقلاء فلا يمكن أن يشتم الانسان منهم أقل دليل على وجوده »

وقال باسيلى باشاتادرس « لا صحة لما يقال من وجود التعصب الدينى والجنسى فى مصر »

وقال شكور باشا « انى أفضل أن أمشى وحدى ليلافيجهات السيدة زينب والنحاسين على أن أمشى وحدى ليلا فيجهات مونمارتر بضواحى باريس »

وقال محل صدناوي التاجر الشهير « ان بقاء الحالة التجارية على حالها أعظم دليل على عدم وجود التعصب » .

وقال اسكندر بك عمون « الامة المصرية أقرب الامم الى التمدن الصحيح والمصرى أكثر اكراما للغريب من سائر الشعوب »

وقال الخواجا ميماراكى « أشهد انى ماشعرت قط فيمعاملاتى مع المصريين باننى أعامل اناسا يخالفوننى في العقيدة والمذهب فما هوالتعصب والحالة هكذا »

وقال وكيل بنك الكريدى ليونيه يومئذ « أننا لم نشعر بشئ من التعصب الذى اتهمت به الامة المصرية اللهم الا اذا كان التعصب موجودا فى غير الدائرة التى تصل اليها معاملات البنك ـ وهى القطر كله »

وقال الدكتور شميل « ان التعصب غير موجود فى مصر على الاطلاق »

مع كل هذه الشهادات من المصادر المختلفة ومن الطبقات المختلفة أبى اللورد كرومر الا أن يكون التعصب موجودا فأوهم انكلترا وأوربا أن مستشار نظارة الاشغال لا يقدر أن يفتح شارعا فى مدينة ولا أن يشق ترعة في أرض ولا أن يبنى قنطرة على مجرى ماء وأن مستشار الداخلية لا يمكنه أن يضبط واقعة ولا أن يحقق رجاله قضية الا اذا كان حوله الجيش الانكليزى ولذلك طلب أن يزاد على نفقة مصر فزادوه وهم الآن يتقاضون أجر هذه الزيادة وكل هذا لان المصرى شديد التمسك بدينه الى حد المغالاة فهو متعصب فتاك لا يصده عن نهب جاره المسيحي وقتل نزيله الاوروبى الا وجود الجنرال بولوك فى شارع قصر الدوبارة وفرقة المدفعية الراكبة والدراغون فى العباسية والبوليس الفرسان وحرس المدفعية في القلعة وسائر الفرق الموزعة في القاهرة والاسكندرية وبعضهم كان يطالب أن ترسل فرق جديدة الى مدن أخرى . والناس يعلمون أن كثيرا من هؤلاء الشبان في جيش الاحتلال لا عمل لهم فى مصر الا أنهم ينامون نهارا وينطلقون ليلا الى التهادى في الشوارع والطواف بحانات المسكرات على حالة يعرفها الجنرال بلوك أكثر من كل أحد

وعن الجامعة الاسلامية

لم يكتف اللورد بما غرسه في اذهان قومه وحرش به الاوربيين المستعمرين فى شمال افريقيا بما زعم من سريان عدوى التعصب من مصر اليه حتى قام يدعو الاوربيين الى جامعة صليبية بدعوى أن المصريين يؤسسون (جامعة اسلامية) فسرها لقومه بأنه يراد بها « اتحاد المسلمين فى العالم أجمع لمقاومة الدول المسيحية ومناجزتها العداء وأنه يقتضى لذلك أن تتدبرها جميع الامم التى لها فى الشرق مصالح سياسية لما يخشى أن يكون من ورائها ثورات يكون منشؤها التعصب في بعض الاقطار » اه

هذا ماقاله جناب اللورد في تقريره الاخير بالحرف الواحد تصويرا للمعنى الذى تخيله لمظاهر الوطنية المصرية الموجودة الآن على غير مايحب ويتمنى ويظهر من مغزى كلام اللورد في هذا الصدد أنه لم يكن يقطع بهذا التفسير لولم تحصل حوادث الصيف الماضي التى قال أننا بها أوشكنا ان نكون على باب ثورة كبري . فاللورد في كلامه عن التعصب

والقلق والجامعة الاسلامية أشبه بالنفاثين في العقد يعتمد على سلطان الوهم الذى يغلب على الاور بيين من ناحية المسلمين فى كل مايقال عن تعصبهم ونتائجه . وهو مع كونه قال انه مستعد أن يقيم الادلة على صحة مايقول عاجز عن أن يقيم دليلا واحدا صحيحاً . فاذالم يكن مخترعا لهذه التهم الثلاث لتلك الغاية السياسية التى لاتخفي على أحد فهو مخدوع فيها الى درجة لاتنطبق على صفات رجل يحسب اليوم فى الطبقة الاولى من عظماء الرجال وخصوصا لانه قضى في مصر التى يتحدث عنها بهذه التهم الباطلة نحو ربع قرن قابضاً فيها بيده على صولجان الملك والسلطة قولا وفعلا .

ليس في مصر أساس لعمل جامعة اسلامية تجمع الامم الاسلامية على مبدأ واحد . ولكن في مصر جرائد أصحابها مسلمون ميالة الى نشر الاخبار التي تبلغها عن مسلمى الامم الاخرى ميل الصحف القبطية الى نشر أخبار الحبشة وروسيا والصحف التي أصحابها من الكاثوليك الى أخبار الامم التى على شاكلتها وهكذا الخ . فان كان اللورد يسمى هذا الميل « جامعة اسلامية » فنحن نهنئه على اكتشافه العظيم ولكننا نعتبر تحذيره الدول النصرانية ودعوته اياها الى اليقظة ضد المسلمين عدوانا عظيما على هؤلاء

وان كتابته مثل هذا في تقرير رسمى باسم معتمد ونائب جلالة الملك ادوارد المعظم في مصر ليس من مصلحة انكلترا في شئ لانه بتلك الدعوة نفسها ينبه عواطف المسلمين في العالم الى كراهية انكلترا ويعمل للجامعة الاسلامية بالمعنى الذى حاول اثباته اضعاف مايعمل كل دعاة الاسلام لوأرادوا الى مثله

ولكن يظهر من كل سطور التقرير الاخير للورد أن قصر الدوبارة أراد باختراع تلك التهم الواردة من مصر والمصريين فى وقت غلت فيه قدر حقده عليهم . فما أشرف نواب الملوك أن يكونوا منزهين عن صفات الحاقدين المنتقمين

وعن عدم كفاءة المصريين

بنى اللورد حكمه على عدم كفاءة المصريين الذاتية لان يتولوا شؤنهم بأنفسهم مهما ارتقوا على قاعدتين . الاولى أن عقل الشرقى من حيث هو شرقى غريب فى شكله وتصوره وذكر لهذه القاعدة شاهدا عبارة ذكرها الاستاذ (سايس) قال فيها مايأتي

« ان من أقاموا فى الشرق وحاولوا أن يختلطوا بأهـله يعرفون حق المعرفة بأنه من المتعذر على الاوربى كل التعذر أن يرى العـالم بالعين التى يراه بها الشرقى . نعم الاوربى في خلال اقامتـه القصيرة يذهب به الفكر بادئ بدء الى أنه يتفـاهم مع الشرقى فيرى أنه يكلم رجلا له عقل غريب الشكل كعقل سا كن زحل » اه

وروى اللورد عن اختباراته هو أنه لايكاد يحدث رجلا من أرقى طبقات المصريين الذين يفتخر بصداقتهم حتى يجمع بين المتناقضات في حديثه قال ولذلك تراني لا أسترسل فى تقدير آراء الشرقي ولا أحفل بتناقضه. وأن العادة فى الدفاع عن خطتين متباينتين كلتاهما تناقض الاخرى هى القاعدة العامة لا الشاذه في مصر »

والقاعدة الثانية جمود دين المسلمين في مصر والدين غالب على مزاجهم غلبة تامة . لان هذا الدين هو « عبارة عن مبادئ وضعت منذ ألف سنة هديا لهيئة اجتماعية في حالة الفطرة والسذاجة وهذه المبادىء منها مايجيز الرق ومنها مايتضمن سننا وشرائع عن علاقات الرجال والنساء مناقضة لآراء أهل هذا العصر ومنها مايتضمن أمرا أهم من ذلك كله وهوافراغ القوانين المدنية والجنائية والملية فى قالب واحـد لايقبل تغييرا ولا تحويرا وهـذا ما أوقف تقدم البلدان التى دان أهلها بدين الاسلام » اه

قاعدتان صيغت احداهما من كلمة خالية للاستاذ سايس وصيغت الثانية من جهالة ظاهرة بروح الشريعة الاسلامية . وقد يكون لذلك الاستاذ العذر في أنه حكم على الشرق باستقراء ناقص وفي وسط غامض عليه . وقد يكون للورد العذر بأنه لايعلم من أمر الشريعة المحمدية الا روايات محرفة عنه

وليس المقام مقام مؤاخـذة اللورد على غلطه الفاضح فى الحكم على الدين الاسـلامى خصوصا وان كلاما مثل الذى قاله عنه مما لايعبأ به و كان أجمل له لو تجنب الخوض فيه بمثل هذا الشطط

ولكن المقام الآن مقام مؤاخـذة على ذلك الحكم الجـائر على اسـتعداد المصريين ووصفهم بعدم الكفاءة الابدية

ان الامة المصرية أكبر من أن يحكم عليها عقل رجل مهما كان عظيما . خصوصاً وان

عقل هذا اللورد قد وضع منذ بضع وعشرين سنة فى قالب مخصوص لينمو فيه نموا مخصوصا راميا الى غاية مخصوصة . وقد حصر هذا العقل أيضا في سبيل نظره الى المصريين بين آذان تسمع الروايات المحشوة بالغايات والاغراض والوشايات الملفقة على المصريين من بعض أعدائهم . فحكمه من هذا القبيل قابل للنقض والتفنيد . واننا مهما بالغنا فى التأدب مع جناب اللورد لا يمكننا الا أن نقول انه مخطىء فى ذلك الحكم خطأ عظيما ومسيء للامة اساءة لا يمكن أن تنسى مادام اسمه مذكورا وستكون درجة هذه الاساءة بقدر تأثير هذا الحكم على مستقبل مصر فى سياسة انكلترا التى تتبعها بعد

اننا رأينا اللورد في كثير من المواقع أطرى كفاءة المصريين عندما كان في هذا الاطراء دفاع عن سياسة خاطئة فقد بالغ في مدح الاشخاص الذين كان لهم عمل في حادث دنشواى من قضاة ومحامين وبالغ في وصف كفاءتهم . وهو كثيرا مايذكر بالمدح الزائد في تقاريره بعض الاشخاص المصريين الذين يريد اطراءهم لغرض سياسى فهل كان هؤلاء من غير المصريين ومن غير المسلمين ؟ ؟ وكان مخطئا فى حكمه لهم

الكفاءة انما يحكم عليها بعد الاختبار وانما يحكم عليها بقدر الاشخاص الذين اختبروا فلو فرض أن اللورد جعل مصالح الحكومة المصرية مدارس للموظفين يتنقل بهم فى درجاتها ابتدائية وتجهيزية وعالية ثم كشف الامتحان الاخير عن فشلهم وسقوطهم لما جاز له بوجه من الوجوه أن يحكم بسقوط الذين دخلوها علي الامة كلها بالقصور الذاتى والجمود الطبيعي فقد يجوز أن يكون ثمت عيب كبير فى طريقة التعليم كما يجوز أن يكون هؤلاء الاشخاص بعينهم منحطين في استعدادهم الذاتى . ومن الظلم المهين أن يتناول هذا الحكم الامة بمجموعها

على ان سياسة اللورد في مصر جرت على نمط آخر . نمط يعطل ذكاء المصريين ويحول بينهم وبين الترقي الذى هم مستعدون له بطبيعتهم كمال الاستعداد . ذلك النمط هو ابعاد المصرى عن كل الوظائف العالية واحتلالها على التوالى بأبناء التاميز . وكلما وجدت وظيفة ذات مسؤلية وعمل ولو كانت وسطي أو أقل من الوسطي خص بها الانكليزى وضوعف مرتبها لتكون لائقة له من كل وجه . وقد أطردت هذه السياسة في جميع المصالح حتى لاترى اليوم مصريا عاملا الاماشذ عن القاعدة . وزحف شبان الانكليز الآن الى

الوظائف الصغري أيضا في بعض المصالح بمسوغات يخترعونها . فالتمرين اذن مفقود والاعداد لكل عمل طريقة التمرين .ان اللورد أبعد أبناء مصر عن ميدان العمل الصحيح والاختبار المفيد ثم حكم عليهم بعدم الكفاءة

هل أمكن الماجور افلن بارنج أن يجد نفسه اللورد كرومر فجأة وبدون عمل واختبار مع أنه لم يصر كذلك الا بعد مضى الاعوام الطوال يعمل عمل القادر المريد الذى يساعده نفر من قومه وتعضده دولة من أقوى الدول في العالم وتغضى عن هفواته فلم ير له محاسبا عليها بينما أهل مصر يفقدون كل يوم وسيلة من وسائل الارتقاء فى الكفاءة الشخصية

والخلاصة أن قصر الدوبارة اخترع تهمة التعصب الديني والقلق السياسى . واخترع الجامعة الاسلامية ونسب كل ذلك الى طبيعة البلاد أولا والجمود الدينى ثانيا . وبنى على ذلك كله عدم كفاءة المصريين الى الابد مع أن القاعدة الصحيحة الاساسية فى الممالك أن الدين والملك اخوان لاغنى لاحدهما عن الآخر . فالدين أس والملك حارس . والبناء اذا لم يكن له أس مهدوم والملك مالم يكن له حارس ضائع . ولكن اللورد غضب على المصريين فنسى القواعد الاساسية فى سياسة الامم ومثل دين المصريين فى صورة وحشية هائلة يخشى منها على المدنية فأساء الى المصريين فى دينهم وفي مبادئهم وفي كفاءتهم وحسبنا الله ونعم الوكيل .

(المؤيد في ١١ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٤ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٨)

الجرائد واللورد كرومر

ا اهتمامه بما لا يجب

ب اهماله ما يجب

« أفضل عندى ان أقيم فى بلاد ذات جرائد ولا قانون من أن أقيم فى بلاد ذات قانون ولا جرائد »

« جفرسون »

كل من دقق فى هذه العبارة وجدها عين الحكمة والصواب . لان الصحف رقيب عام مذكور عند جميع الناس كل يوم والقانون رقيب لا يذكره الا المتقاضون في مزالق القضاء فقط . ثم ان مراقبة القانون نفسها ضعيفة جداً اذا لم تكن ثمت جرائد . وقد قال اللورد كرومر في تقريره عن مصر لسنة ١٩٠٣ « ان خوف التشهير على صفحات الجرائد يمنع كثيراً من الشرور ويقلل العيوب التى تعتور نظام الحكومة » . فاذن لا بد لمصر من الجرائد . والا خلت من الرقيب العام الذى يفيد الناس أكثر من القانون كما قال « جفرسون » وكثرت الشرور وفشت العيوب التي تعتور نظام الحكومات كما قال اللورد كرومر . وكلاهما يتكلم عن الجرائد الحرة لان الجرائد المفيدة الخاضعة لسلطان الحكومة لا يمكنها أن تراقب عليها وعلى الناس

وبعد هذ التمهيد القليل نقول

لم يكن اللورد كرومر قبل سنة ١٩٠٣ يذكر شيأ في تقاريره عن الجرائد المصرية وغاية ما كان يفعل أنه يشير اليها عرضا في أثناء كلامه عن غيرها

ولكنه فى تقرير سنة ١٩٠٣ عقد لها فصلا خاصاً بها كان مغزى كلامه فيه موجها للجرائد الوطنية وأشار الى مايشكو بعضهم منها ثم قال « ورأيى الخصوصى أن خير ما فعلته الجرائد أفاد الحكومة بوجه العموم وشر ما فعلته لم يضر ضررا بليغا بمصالح البلاد الحقيقية » .

وقال فى موضع آخر من من هذا الفصل «ولا أظن انه يمكن ذكر حادثة واحدة في العشرين سنة الماضية تدل على أن حرية الجرائد أضرت بالبلاد ضررا عظيما أوأخرت سير الاصلاح الحقيقى يوما واحدا » ــ وقد وجدت بالاختبار أنه ليس من الصعب التمييز بين مايستحق الاعتبار و بين مالا يستحقه فيها فاذا قرأت خبرا مهما لم أعلم به قبلا أستعلم عما اذا كان صحيحاً أولا وقد يتفق انه لايكون صحيحا أولايكون مدققا ولكنني مدين للجرائد بأخبار استفدتها وربما لم أكن أستطيع الوصول اليها لولاها . اما من جهة آراء الجرائد فانى اماأن اهتم بها أولا أهتم وذلك يتوقف على المصدر الذى تصدر عنه وقوة الادلة المبسوطة فيها وهل هى آراء شخص واحد أو رأى جمهور يستحق الالتفات والاحترام وغير ذلك من الاعتبارات » الخ الخ

وفى تقريره عن مصر لسنة ١٩٠٤ عقد أيضا فصلا مخصوصا بالجرائد تكلم فيه أولا عن قرار للجمعية العمومية فى تلك السنة تستلفت به نظر الحكومة الى تطرف بعض الصحف لنبش الاعراض والحط من كرامة العائلات»

فبعد أن فسر جنابه المراد من هذا القرار قال « الا أنى بعد أن قلت ماقلت لا أرى من الواجب ولا من المناسب التعرض للحرية التامة التى لم تتمتع بها الجرائد فى بر مصر . نعم ان لتلك الحرية مضار وسأشير اليها والى العلاج الذى أصف لتخفيف شرها . ولكنى على يقين أن منافعها تفوق مضارها كثيراً . فغاية مايقال ضد الجرائد المحلية في القطر المصرى أنها قد تجلب على بعض الناس مالا يستحقون ولا لزوم اليه من الالم ونغص العيش بمخالفتها للواقع وتمويهها للحق فيما ترويه عن أفعالهم أو تنتقد به سلوكهم . هذا مايقال عليها وأما مايقال لها فهو كل الاقوال والادلة التي تقام على فوائد حرية الصحافة

وفي تقريره لسنة ١٩٠٥ طلب من الجرائد المصرية في مقدمة من طلب منهم أن تبحث مشروع (الامتيازات الاجنبية) الذى اقترحه أول مرة فى التقرير المذكور وتبدى آراءها فيه

هذا تقدير جناب اللورد للجرائد المصرية قبل أن تحدث حادثة العقبة في ربيع العام الماضي وهذا حكمه عليها فى مدة ٢٣ سنة مضت . وتلك عنايته الكبرى بحريتها وهذه أقواله

عليها ولها وهذا دفاعه العظيم عنها . والمؤيد في مقدمة الصحف اعترافا بفضل جناب اللورد عليه من هـذه الجهة . نعم ان للامتيازات الاجنبية دخـلا كبيراً فى ايجاد حرية الصحف الحاضرة وتأييدها كما يدل على ذلك كلام اللورد نفسـه في تقريره لسـنة ١٩٠٣ ولكننا لا نبخس جنابه حقه من ميله الشخصي لمساعدة هذه الحرية وتأييدها للوطنى مثل الاجنبى حتى يتكلم ذاك بصفته وطنياً كما يتكلم هذا بصفته أجنبيا

المؤيد لا ينسى على الدوام كلمة اللورد لمن سأله من أبناء جنسه قبل نحو عشر سنوات أن يقضى على المؤيد بأية طريقة كانت فأجابه «ان المؤيد لا يسقط الا بتدبير مكيدة لصاحبه يقع فيها ليسقط بها . تسقط جريدته معه ــ أو بالغاء الجريدة عنوة واقتـداراً . والاول لا ترضاه ذمتى والثاني لا يرضاه البرلمان »

* * *

والغريب أن اللود كرومر الذى يقدر حرية الصحافة حق قـدرها و يدافع عنها بمثل النزعة العالية الشريفة التى تقدمت ويعترف بما للجرائد المصرية من الفضـل والفائدة فى خدمة الامة يظهر بمظهر الغضب الشـديد عليها الى مثل هذا القـدر الذى تجلى في تقريره الاخير . وعهدنا بعظماء الرجال مهما نبض في نفوسـهم نابض الغضب بل مهـما جاشت به صدورهم أن يكون عندهم من حزم الحلم مايضبطون به السنتهم وأيديهم أن تظهر عليها أفاعيله فلا يسبون ولا يبطشون ولا يحكمون على المغضوب عليهم حكم الجبارين .فما بال اللورد كرومر قد ترك قدر غضبه يغلى في صدره حـتى ثارت يداه فبطشت بطش الجبارين بالجرائد . وما باله نسى كل ماقاله عن الصحافة في تقاريره الماضية وحكم عليها حكما قاسـيا لا ندرى بماذا نصفه . ماباله ناقض نفسـه فيها بين أمس واليوم . قال أمس انه يسـتفيد منها وان منافعها تفوق مضارها مهـما بلغ من أمرها وان مايقال لهـا هو كل الاقوال والادلة التى تقام على فوائد حرية الصحافة . أى انها تؤدى وظيفة الصحافة الحرة على كل حال . واليوم يقول انها كذابة فى كل ماتقول وأنها مضرة دائما وانه «وجدها تشوه وجه الحقائق عادة فترويها على غير صحتها وكثيرا ماتفسدها عمدا » الى ان قال «ولست أتذكر أني قرأت في جريدة منها مقالة واحدة صحيحة المادة أو حسنة الاستدلال أو مفيدة في المسائل المالية أو المعارف

أو النظام القضائي الخ »

ما باله يحكم عليها حكم الجبارين على أعدائهم الضعفاء وهو يعلم أن حكمه هكذا على التعميم الشامل لكل الجرائد ولماضيها وحاضرها ولكل ما كتبت في كل موضوع لا يقبله العدل والعقل . وغاية مايقال عنه انه غضب فأطلق للنفس عنانها وترك القلم يجول جولة المغتاظين المنتقمين

علي أنه يلوح لنا من خلال الفصل الذى كتبه عن « الصحافة المصرية » فى تقريره الاخير ان جناب اللورد يهتم بأمر الجرائد فيما لا يجب ويهمل من أمرها ما يجب

يهتم بقتل حرية الجرائد فيما اذا كان الكلام موجها الى عمل من أعماله فى أخطر الوجوه وأعلقها بمصالح البلاد الكلية وهو مشرف على كل شئ ومشتغل بكل شئ ويهمل مايتعلق بغيره ولو كان في أعظم مكانة من الاهمية ويرى في اهماله هذا احياء الحرية الصحافية للبلاد . ولعل القراء يطلبون منا ايضاحاً لهذا الاجمال فنقول

بدأ حكمه على الجرائد المصرية ينقلب من الابيض للاسود ويرميها بالتعصب والبراعة في اختراع الاكاذيب الى حد لا تجاريها فيه صحافة بلاد أخرى من يوم مسئلة العقبة المشؤمة اذ رأى من بعض الصحف الوطنية شيأ من الحدة والحماس سماه تهيجا والمؤيد نفسه يعترف بأنه قد وجد شئ من التطرف الشديد في بعض صحفنا ولم يكن راضيا عنه . ولكننا نستسمح حلم جناب اللورد كرومر في أن نسأله السؤال الآتى وهو . لماذا اهتم جناب اللورد كرومر بهذا الجانب من خطة الصحف المحلية ولم يهتم بذلك الجانب الذى كان أشد تطرفا ضد الدولة العلية وكان يتكلم عنها كعدوة لدودة لمصر مشرفة على حرب معها . كان المقطم والبروجريه وغيرهما من الصحف المحازبة للاحتلال تتكلم على الدولة العلية فى ذلك الخلاف كما يتكلم أشد الصحف تطرفا وحماسة وتحقيرا بل كما تتكلم جرائد الاعداء عن دولة محاربة فتتوعدها بالقهر والغلب والتنكيل . وكان يظهر من كل عباراتها أنها تستقي الاخبار ساعة فساعة من الوكالة البريطانية . ونسيت هي أونسي جناب اللورد أن مصر لا تزال تحت سيادة الدولة العلية مهما وهنت أعلاق هذه السيادة . وان جلالة الخليفة العثمانى يخطب باسمه كل جمعة على منابر المساجد . وأن القضاء الشرعي الجارى فى البلاد لا يزال

تحت أمره فكل قضايا الاحوال الشخصية التى تعيش عليها العائلات فى منازلها يفصل فيها باسمه لانه مفيض الاذن بها على القضاة الحاكمين . فاذا أهمل جناب اللورد كرومر من أمر الصحف مايجب عليها تجاه هذه العلائق القوية بين عواطف الامة المصرية وسلطان آل عثمان وترك للصحف التى تستمد النفوذ والرأى من الوكالة البريطانية تمثل الدولة العلية دولة مغيرة محاربة لمصر وتدعو عليها بالويل والثبور فقد استفز عواطف الشعب الكامنة وهيج خواطرهم وذكرهم بكل مابينهم وبين الدولة العلية من علائق السيادة

ألم يكن من حسن السياسة أن يهتم بخطة الجرائد التى تستظل برعايته الخصوصية وتستمد نفوذها من الوكالة البريطانية أن تراعى مايجب عليها مراعاته من عواطف الامة التى رابطتها بالدولة العلية الى هذا الحد عند ماتتكلم عنها وخصوصا فى خلاف من هذا القبيل

أليست الجرائد المسيحية التى تستمد نفوذها من الوكالة البريطانية هى التى بتمثيلها الدولة العلية على أقبح صورة يمثلها العدو للعدو المحارب تستفز عواطف الامة المصرية وتهيج خواطرها . أليست هى التى تذكرها بكل مابينها وبين الدولة العلية من الروابط السياسية والملية بسوء لهجتها أليست هى التى أوجدت الميدان فسيحا لبعض الصحف الاسلامية كى تتحمس وتطلق لنفسها العنان في مثل هذا الميدان

يقول اللورد كرومر اننا كنا فى ربيع العام الماضى على باب ثورة كبرى متوقعة من الشعب بسبب تهيجات الصحف الاسلامية . ولو أنه أنصف فى حكمه وكان يقرأ الصحف المصرية بعينيه لا بأذنيه لقال بسبب تهيجات بعض الصحف المسيحية وخصوصا التى أصحابها يزعمون أن لهم ثارا قديما عند الدولة العلية ويريدون الانتقام . وان كلمة واحدة تصدر من صحيفة مسيحية صنيعة للوكالة البريطانية في موضوع خلاف بين الدولة العلية وانكلترا سلبا أشد وقعاً على نفوس الشعب المصرى من ألف كلمة لصحيفة اسلامية فيه ايجابا خصوصا في مثل حادثة طابا التى لاتساوى مصلحة المصريين منها مهما عظمت قلامة ظفر من تلك العلائق التى بينهم وبين الدولة وعلى الاخص لأنها كانت تحرص عليها لسلامة طريق الحجاز الجديدة

ان اللورد كرومر لو اهتم من قديم الزمان بتقويم سلوك الجرائد التى تستمد نفوذها

من الوكالة البريطانية وتعديل خطتها التى تضرب بخشونتها الامثال والتى دأبت على أن تخاطب الناس كأنها ترميهم بالحجارة من مقالعها لاتبالى أن تنغص عليهم عيشهم في السراء والضراء بما توهم أنه من تلقين الوكالة البريطانية وايعازاتها ـ انه لو فعل ذلك ووقى المصريين شر هؤلاء الفضوليين لاكتسب جماع الود من جوانح الشعب ولما ساء التفاهم يوما بين الوطنيين والمحتلين . ولكن تغافل جناب اللورد عن خطة هذا الفريق من الصحف المحلية واهماله ما كان ينبغى ملاحظته من ذلك أدخلا فى نفوس الناس أن من مأمورية الاحتلال تحقير الدولة العلية ومس احساسات الامة فى علاقاتها معها ومع الاريكة الخديوية وفى شعائر الامة وفي مظاهرها وفى كل حادثة تحدث ويكون لها ارتباط بالاحتلال ولو بألف واسطة

واهتم اللورد أيضا بمنع الجرائد المحلية الا ماهى من صنائع الوكالةالبريطانية من الدخول الى السودان فخالف بهذا المنع المبدأ الذي ينادي به على رؤس الاشهاد من ميله الى تعميم حرية الصحافة وتأييدها لان هذه الجرائد نفسها تدخل بلاد الحبشة وحكومة السودان أقرب للمدنية وأقوى بأسا وأقدر على حفظ النظام وأهيب فى عيون الرعية من حكومة الحبشة وفي الحبشة مسلمون يخشى بأسهم اذا تحركوا فما يمكن أن يخشى من الجرائد فيه بالسودان يخشى منها كذلك فيه بالحبشة . وما أضيع الفائدة من هذا العمل على ان كل قراء الجرائد المصرية في السودان أوجلهم من ضباط الجيش والموظفين المصريين الذين لهم الحق أن يعرفوا أخبار بلادهم من جرائدهم فحرمانهم من قراءتها ظلم عظيم لهم

اهتم جنابه بكتمان الاخبار المهمة والنافعة عن الجرائد المحلية وسارت المصالح المصرية على خطته في ذلك فلا ترى فى قلم المطبوعات للصحف المحلية الا ماهو من قبيل الاعلانات التى لو اتفقت الجرائد على عدم نشرها لطلب منها نشرها بأجرة ـ بينما الاخبار المهمة والحقائق الثمينة تعطى لمكاتبى جرائد أوربا فتنقلها الجرائد المحلية عنها نقلا

زار ادارة المؤيد منذ سنتين شخص انكليزي وطلب مقابلة صاحبه ومعه ورقة زيارة باسم موظف كبير فى الوكالة البريطانية وقال انه مكاتب جريدة كذا في لندرة يريد أن يعلم من أحوال مصر والمصريين مايود أن يبعث به الى جريدته فقلنا له أهلا وسهلا

وأ كبرنا هذه الدلالة التى تفضلت بها الوكالة وقلنا عساها علمت أن الرجل يريد أن يتعرف الحقيقة من جانب المصريين أنفسهم ؟ ؟ ولكننا ما بدأنا نجيبه على بعض أسئلته حتى زاغ بصره وكان يشرب القهوة فوضع الفنجان الى جانب وعاد يسأل أين هو ـ واذا بسائق العربة التى أوصلته الينا قد أخطأ السمع فبدلا من أن يذهب به الى ادارة « المقطم » جاء به الى ادارة « المؤيد » .

ولذلك ما كاد يتحقق الرجل أين هو حتى قام بلا سلام ولا كلام مسرعا مهرولا الى العربة فامتطاها الى ادارة « المقطم » . فقلنا لولا مثل هذا ماساء التفاهم بين المصريين والانكليز . ولو أنهم عنوا بسماع مايقول المصريون دائما لاستطاعوا أن يوفقوا بين مصالح الفريقين . وكم رأينا حفاوة بمكاتبى الجرائد الاوربية فيفتح لهم كل باب مرتج ولكن ليروا بالعين التى يحبون أن ترى ويسمعوا بالاذن التى يرغبون أن تسمع وما ذلك الا لأن اللورد كرومر على جلال قدره وعلو منزلته فخور بذكر أعماله عاشق لحسن الصيت أبغض شىء لديه أن تلمز أعماله بكلمة كما أن أقدس شىء عنده أن تغنى الجرائد الكبرى في أوروبا والجرائد الصغرى في مصر بمدائحه

ونقول الصغرى لان الجرائد الافرنجية المحلية التى أطراها جناب اللورد في تقريره لاخير وتواضع لها كثيرا لاتحسب الا صغرى في جنب الجرائد العربية التى صب عليها جام غضبه حتى خيل لنا أنه سيأخذ بمجموعة نسخ منها يوم ٤ مايو المقبل ليشعل فيها النار بين يديه فى الأوبرة الخديوية خلال خطبته السياسية الكبرى فيصفق له الحاضرون تصفيقا مضاعفا .

(المؤيد في ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)

وداع اللورد كرومر

ودع حضرة شاعر مصر الكبير حافظ أفندى ابراهيم جناب اللورد كرومر بعد استقالته بهذه القصيدة الفيحاء التى بين اكرام الرجل عند رحيله وبين انصافه فيما أحسن ونقده فيما لم يحسن ولو أن قصيدته هذه كانت نثرا لكان أحسن من كتب ولكنها شعر فهى أرقى مايقول شاعر عربى فى هذا العصر

فتى الشعر هذا موطن الصدق والهدى فلا تكذب التاريخ ان كنت منشدا
لقد حان توديع العميد وانه حقيق بتشييع المحبين والعدا
فودع لنا الطود الذى كان شامخا وشيع لنا البحر الذى كان مز بدا
وزوّده عنا بالكرامة كلها وان لم يكن بالباقيات مزودا
فلم لاترى الاهرام يانيل ميدا وفرعون عن واديك مرتحل غدا
كأنك لم تجزع عليه ولم تكن ترى فى حمى فرعون أمنا ولا جدا

* * *

سلام ـ ولو انا نسيء الى الاولى أساؤا الينا ـ ما مددنا لهم يدا
سنطري أياديك التى قد أفضتها علينا فلسنا أمة تجحد اليدا
أمنا فلم يسلك بنا الخوف مسلكا ونمنا فلم يطرق لنا الذعر مرقدا
وكنت رحيم القلب تحمي ضعيفنا وتدفع عنا حادث الدهر ان عدا
ولولا أسى في دنشواى ولوعة وفاجعة أدمت قلوبا وأكبدا
ورميك شعبا بالتعصب غافلا وتصويرك الشرقى غرا مجردا
لذبنا أسى يوم الوداع لاننا نرى فيك ذاك المصلح المتوددا

* * *

تشعبت الآراء فيك فقائل أفاد الغنى أهل البلاد وأسعدا
وكانت له في المصلحين سياسة ترخص فيها تارة وتشددا
رأى العز كل العز في بسطة الغنى فحارب جيش الفقر حتى تبددا
وأمتعكم بالنيل فهو مبارك على أهله خصباً وريا وموردا
وسن لكم حرية القول عند ما رأى القول في أسر السكوت مقيدا
وآخر لم يقصر على المال همه يرى ان ذاك المال لايكفل الهدى
فلا يحمد الاثراء حتى يزينه بعلم وخير العلم ما كان مرشدا

* * *

يناديك قد أزريت بالعلم والحجى ولم تبق للتعليم يالورد معهدا

وانك أخصبت البلاد تعللا ... وأجدبت في مصر العقول تعمدا
قضيت على أم اللغات وانه ... قضاء علينا أو سبيل الى الردى
حططت عليها ربع قرن بعزمة ... وأرصدت دنلوبًا لها فترصدا
ووافيت والقطران في ظل راية ... فما زلت بالسودان حتى تمردا
فطاح كما طاحت مصوع بعده ... وضاعت مساعينا بأطماعكم سدى
حجبت ضياء الصحف عن ظلماته ... ولم تستقل حتى حجبت (المؤيدا)
وأودعت تقرير الوداع مغامزا ... رأينا جفاء الطبع فيها مجسدا
غمرت بها دين النبي واننا ... لنغضب ان أغضبت في القبر أحمدا

***

يناديك أين النابغون بعهدكم ... وأي بناء دارس قد تجددا
فما عهد اسماعيل والعيش ضيق ... بأجدب من عهد لكم سال عسجدا
يناديك وليت الوزارة هيئة ... من الصم لم تسمع لاصواتنا صدى
فليس بها عند التشاور من فتى ... أبيّ اذا ما أصدر الامر أو ردا
بربك ماذا صدنا ولوى بنا ... عن القصد ان كان السبيل ممهدا
أشرت برأى في كتابك لم يكن ... سديداً ولكن كان سهما مسددا
وحاولت اعطاء الغريب مكانة ... تجر علينا الويل والذل سرمدا
فياويل مصر يوم تشقى بندوة ... يبيت بها ذاك الغريب مسودا
ألم يكفنا أنا سلبنا ضياعنا ... على حين لم نبلغ من الفطنة المدى
وزاحمنا فى العيش كل ممارس ... خبير وكنا جاهلين ورقدا
وما الشركات السود فى كل بلدة ... سوى شرك يلقى به من تصيدا

***

فهذا حديث الناس والناس ألسن ... اذا قال هذا صاح ذاك مفندا
ولو كنت من أهل السياسة بينهم ... لافردت لى رأيا و بينت مقصدا
ولكنني فى معرض القول شاعر ... أضاف الي التاريخ قولا مخلدا .

فيا أيها الشيخ الجليل تحية ... ويا أيها القصر المنيف تجلدا
لئن غاب هذا الليث عنك لعلة ... لقد لبثت آثاره فيك شهدا

(المؤيد فى ١٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ - ٢٧ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٤٩)

٥

تقارير اللورد كرومر

مافتىء اللورد كرومر منذ عين معتمداً لدولتـه في مصر وهو يكتب التقارير الطوال لحكومته عن أحوال هذه البلاد ونتائج أعماله فيها . ولكنه منذ سنوات أخـذ يتوسع فيها ويزيد في أبوابها وفصولها وملحقاتها كثيراً حتى صار كل تقرير سنوى منها أشـبه بكتاب كبير الحجم

وللتقارير الرسمية من هذا القبيل فوائد حاضرة وأخرى مستقبلة . أما الحاضرة فهي اطلاع الحكومة التى ترفع لها على ماجريات الاعمال التى غنى ببيانها فيه على الاسلوب الذي يختاره كاتبها وبالتالى اطلاع كل من يقرؤها على مافيها . وأما المستقبلة فهي علاقة التاريخ بالماضي وحظها منه حظها من مطابقة الحقائق فيما حوته من الاخبار والافكار

ونحن لانبحث فى هذه التقارير من جهة التناقض الذى اشتملت عليه فان الذى يطلب الثبات على قول واحد من سياسى انما يطلب من الماء جذوة نار وخصوصاً اذا كان هذا السياسى مستعمراً لان المستعمر متحيل فى الاقوال والافعال يتحين الفرص لاختطافها تارة ويخضع لحكم الظروف عند قسرها أخري

فلا يقال — لماذا صرح اللورد كرومر في كل تقاريره الماضية التى ذكر فيها الاحتلال وأجله أنه موقت لابد له من نهاية ولو آجلا. وفي تقريره الاخير قال ان الاحتلال دائم لان الحكومة البريطانية بعد الوفاق الانكليزى الفرنساوي المعقود في سنة ١٩٠٤ لاتقصد العمل بما لها من السلطة الاختيارية لاخراج الحامية البريطانية من مصر » . ولا لماذا قال فى تقريريه لسنتي ١٨٩١ و ١٨٩٢ ان اشراف نفوذ الخديو على الاعمال والمصالح ضرورى

جدا لسير الاعمال ثم هو فى تقريره لسنتى ١٩٠٥ و ١٩٠٦ أبدى الحذر الشديد من أن تساعد مصر على اعطائها هيئة نيابية لان ذلك يعيد السلطة الشخصية التى جرت الشر والشؤم على البلاد منذ عهد غير بعيد . وانما الفرق أن هذه السلطة الشخصية تكون بصورة أخرى غير الصورة الاولى. ولا لماذا قال في تقريره لسنة ١٩٠٥ « ان الخديو الاسبق اسماعيل باشا قد ارتكب الخطأ القتال في حصر كل السلطة والقوة بيده » ثم انه حصر هذه السلطة في يده أضعاف ماعمل اسماعيل وكل حرف من تقاريره دليل على ذلك . ولا لماذا قال في تقاريره السابقة عن الصحافة المصرية خلاف ماقال في تقريره الاخير عكسا تاما ولا . ولا . ولا . الخ مما ربما أفردنا له مقالة على حدتها في غير سلسلة هذه المقالات التى نحن بصددها خصوصا وان السياسي الماهر قادر أن يعتل لكل قول قاله بعلة ويقول لكل مقام مقال

ولكننا نقول انه بتقاريره هذه قد غرس في أذهان الملوك والامراء والوزراء والامم أن الامة المصرية متعصبة وحشية شرسة لارأى لها ولا استعداد فيها فلا تصلح للاستقلال بحال من الاحوال أى أن الامة المصرية فى رأى جنابه جامدة غير متحركة ولا قابلية عندها للارتقاء .

سجل جنابه في تقاريره على المصريين عدم كفاءتهم بحكم الطبيعة التى خلقوا عليها والجمود الدينى الذى عندهم لان الشريعة الاسلامية مخالفة لروح المدنية الحاضرة.

كانت مصر عنده وطنا خاصا بالمصريين ولكنه في تقريره الاخير غضب عليهم فلم يرد أن يجعل لهم وطنا خاصا بهم فذهب الى أن مصر يجب أن تكون لجميع العناصر فيها لهم منها حقوق كل وطنى من وطنه مع بقاء الامتيازات الاجنبية لنزلائها وهو مالم يحفظه التاريخ عن مشرع في حقوق الدول والشعوب والافراد في وطن من الاوطان ــ اساآت خالدة مابقيت تقاريره فى الوجود . اساآت لاتقف عند حد القراءة ولكنها تثبت في نفوس الاوربيين أن المصريين على ماوصفهم به اللورد في تقاريره وهم يزعمون أن وراء كل تقرير سنوات كثيرة من الاختبار . اساآت أعطى بها اللورد خصوم مصر والمصريين سلاحا حادا يحاربونها به في كل زمان ولو بعد السلطة الكرومرية

والعقلاء يؤملون أن يجري جناب السيرغورست المعتمد الجديد على خطة اللين والمواساة ومداراة العواطف بدل تلك المجافاة التى سار عليها سلفه في الزمن فيجيبها الى مطالبها تدريجا واذ ذاك يمحو عنها في المستقبل تلك التهم الشنيعة التى ألصقها بها سلفه في تقاريره حيث يعلم الناس قاطبة أن الشعب المصرى قابل للترقى والكمال اذا وجد من يدبر أموره باللطف والانعطاف . فقد كان اللورد كرومر يحاول منذ ٢٥ سنة أن يصفق بيد واحدة ولكنه بعد انقضاء هذا الزمن الطويل عجز عن ادراك ماأراد

فاذا صفق المعتمد الجديد بيدين بدلا من واحدة ـ اذا بسط يده للامة مستعينا بيدها ـ اذا قال لها انى آت من قبل ملكى وحكومتى وأمتى لاساعدكم على الارتقاء وأمهد لكم الوسائل لاعلان كفاءتكم الذاتية ـ واذا أعرض عن وشايات الواشين ونظر الى الاشياء والاشخاص بالعين المجردة وكسر تلك النظارات الملونة ـ اذا فعل كل هذا فان صدى تصفيق السرور والارتياح من عمله يكون قويا مسموعا في العالم كله واصلا الى أعماق قلوب المصريين . وهذه الامة التى عجزت عن تحريكها الجرائد وزيارات كبار الموظفين والاعيان للتظاهر بما لا تشعر به فى وداع جناب اللورد كرومر تهب عن بكرة أبيها محتفلة بالسير غورست أينما توجه شاكرة فضله بصوت جهورى

ليس بين المصريين والانكليز دماء يريد الاولون أن يثأروا لها . وليست انكلترا عدوة لمصر ولا الشعب المصرى كفورا للجميل والمعروف ولكنه أمة حساسة شديدة الشعور لينة العواطف ولكن اذا تسلط عليها مستبد قادر وهى عاجزة عن دفع استبداده بالوسائل الممكنة السائغة لها اكتفت بالحق الصريح الممنوح بالطبع لكل ضعيف تجاه السلطة القاهرة ـ وهو الانقباض عنه وملازمة السكون عند مايراد من شيعته أكرامه وتمجيده

* * *

الا أن لهجة اللورد كرومر العنيفة الشديدة الجفاء والايلام فى تقاريره وخصوصا الاخير منها قد جرأت الصحف الانكليزية على اتخاذ مثلها في مخاطبة أمير البلاد والامة أيضا فصار سهلا على تلك الصحف متى أرادت أن تحمل على مصر والمصريين وكفاءتهم ومبادئهم وعاداتهم الملية والقومية حملات العدو القادر على الضعيف المنهوكة قواه والموطوءة

بالاقدام حقوقه بعد ما كانوا بالامس يراعون الامـة الاسلاميـة و يحرصون على ولائها علما منهم أن سلطان دولتهم قائم على أساس أقوى قواعده من هذه الامة

ونحن نرجو أنه متى استقر اللورد في قصره الانكليزى ورجعت له عواطف الانكليز الشريفة ومبادئه الانسانية العالية وحاسبته ذمته النقية فراجع مجموعة تقاريره عن مصر وجد فيها من منازعات ضميره ما يحمله على الندم وتحقق أنه لم ينصف نفسه ولم ينصف الامة التى كتبت عنها — لم ينصف نفسه لاننا نحن معاشر المصريين نذكر لجنابه أنه أحسن كثيرا في الافعال وأساء أكثر في الاقوال فلو أنه لم يخلد تلك الاساآت القولية فى بطون تواريخه ماذكر له المصريون غير حسنات أفعاله ولكنه كان بمثابة الذى يتصدق و يتبع صدقاته بالمن والاذى أو بمثابة الذى يطعم الجائع و يلعنه في وقت واحـد ولو أن لسانه لم ينطق باللعنات لترك الذين أطعمهم وتصدق عليهم يسبحون بحمده و يمجدونه — ولم ينصف الامـة لانه ظلمها بمـا كتبه في تقاريره عن تعصبها و جمودها وفساد طبيعتها و بما اقترح لها من المضار الاجتماعية التى لا تجتمع فى وطن واحد

ان التاريخ سيمحص تقاريره فيجد فيها اختلافا عظيما يدل دلالة واضحة على ان كاتبها كان في حيرة مما يريد أن يسطر فيكتب عن غير هدى ولا اختبار ولا عـلم كاف بحقائق الاحوال . ولكن الذى كان يغطى كل هذه العيوب فيها ما لاسمه وهو على عرش سـلطته من العظمة ولاوامره من النفوذ فمتى زال حجاب هـذه العظمة ومزق الزمان سـتار النفوذ وذهبت ترهات المنافقين من حولهـا ظهرت تلك العيوب مجسمة وأخذ النـاس يحكمون عليه حكمًا جديدا وتكون هذه التقارير أكبر جان عليه .

(المؤيد في ١٥ ربيع الاول سنة ١٣٢٥—٢٨ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٠)

٦

لو كنت اللورد كرومر

ا امس

ب غدا

اننا اذا انتقدنا سياسة اللورد كرومر فلسنا ندعي اننا أدرى بأسرار السياسة الانكليزية في مصر منه كذلك ليس بين الكتاب فى الشرق والغرب من يزعم أنه محيط بأسرار سياسات الدول العمومية أو عظماء رجالها . ولكن ذلك لا يمنع الكاتبين أن ينتقدوا سياستهم من الجانب الذى يبدو لهم

وعلى هذا فلنا الحق أن نبحث في أعمال الرجل العظيم ولنا الحق أن ننتقد منها ما لا يبدو لنا وجه الحكمة فيه أو ما تظهر نتائجه مضرة لنا أو للغير ويجوز أن يكون رأينا هو الصواب لان هذا الرجل العظيم الذى ننظر الى ماضى أعماله في بلادنا انما كان يعمل وهو محاط بظروفه ومؤثراته ونحن ننظر الى عمله خالين من تلك المؤثرات والظروف

والذى يسوّغ لنا هذا الانتقاد هو اننا نفرض مصلحة مصر مرادة للورد في كل ما يجرى على يديه خصوصا وقد أعلنوا مراراً أن مهمة الاحتلال في وادى النيل العمل لترقية سكانه واصلاح شؤونهم حساً ومعنى وان مصلحة انكلترا في مصر قبل كل شئ القيام بتلك المهمة السامية خير قيام

فلو كنت اللورد كرومر على هذا الفرض لكان لى رأي فى كيف أدير أمور القطر المصرى أمس وكيف أفيده غداً بعد استقالتى . لو كنت اياه وساعدنى الحظ الأوفر أن أجد من حكومتي تلك المنحة العظمي التى منحتها حكومته اياه فأعطي حرية التصرف التامة واطلاق العنان في كل ما أريد الى حد أني اذا أردت منها معونة أستصدر منها الاوامر التى أبعث لها صورتها بالنص فتعود الىّ ممضاة بامضاء وزير الخارجية مطرزة بالسلطة القوية التى استمدها منه ولو الى درجة اعداد الاساطيل ـ لو كنت اياه من كل وجه لجريت على الخطة

الآتية . وهي ان أضع نصب عيني قبل كل شئ درس أخلاق الامة المصرية وعاداتها وتقاليدها حتى اذا عرض لى في المستقبل مايقتضي التردد بين سياستين اخترت بحكم الخبرة التامة أفضلهما وجثت الامة من حيث أستهوى أميالها واتخذها عضداً لى في كل أعمالى

أما جناب اللورد فقد جلس في داره بالاسماعيلية أولا وقصر الدوبارة ثانيا وأخذ يتعرف أحوال الامة وأخلاقها بواسطة بضعة أشخاص اتخذهم لاستطلاع الاخبار الذى صار على مر الزمان حرفة لهم اختصوا بها كما خصهم بثقته فصاروا عينه التي ينظر بها وأذنه التى يسمع بها بل وخياشيمه التى يشم روائح الاشياء بواسطتها . فلما أصبحوا كالحجاب ببابه انحصر علمه فى كل شيء من هذا الباب وصار من مصلحتهم الخصوصية ان وصل اليه من غيرهم كلام تولوا شرحه وتأويله وأضافوا اليه الحواشي والهوامش حتى ينمحي كل أثر عنده لغيرهم. وكان لسوء حظ المصريين بعض أصحاب اخباره من أصحاب الصحف المتزلفة المحابية فانتهى بجناب اللورد أن كان ينظر أحوال الامة كلها بنظارات ملونة بالغايات والاغراض الخصوصية فرآها متعصبة جاهلة لا يليق بها غير العنف وقد فعل ولم يرفع تلك النظارة عن عينيه ساعة واحدة مدة ٢٤ سنة

فلو كنت اللورد كرومر وأحطت علما بكثير من أسرار تواريخ تقدم الامم وأسباب ارتقائها التى من أهمها وأفضلها رفع نير الجهالة عن أعناقها ـ لمنحت مصر يدا عالية من التعليم الصحيح . ولو أنه تمكن فى مدى ربع القرن الماضي (وهو أكبر زمن لحضانة العلم في رأى فلاسفة العمران) من نشر العلم كما يجب وتسهيله على ناشئة الامة كما ينبغى لوجد الآن أمة متعلمة في مجموعها تستطيع أن تقدر خدماته الجليلة التي يدعيها له أنصاره الآن كاملة من كل وجه ـ أمة عالمة بمصيرها لو عارضته كانت معارضتها له خيرا من محاباة الجاهلين

بل لو كنت اللورد كرومر لفعلت مافعله الاحرار في وزارتهم الحاضرة فانهم بعدما حاربت أمتهم الترنسفال ثلاث سنوات وبعد ماوضعت الحرب أوزارها وألقى البوير سلاحهم بين يدى أعدائهم الاشداء مسلمين لم يروا من مصلحة بريطانيا العظمى أن ينتقموا لها من خصمهم الذى تجرأ على قتالها غير أهل لذلك بل رحبوا بهذا الخصم بعد تقرير السلام .وفي أقل من عامين منحوهم استقلالهم الادارى مظهرين لهم وللعالم بأسره أنهم لم يحاربوهم منتقمين

ليسحقوهم سحقا ولا ليذهبوا بقوميتهم من الوجود ولا ليجعلوا بلادهم غنيمة للشاردين والواردين. فأكدوا بالبرهان المحسوس أنهم لم يضمروا لهم سوى الخير وان سفك دماء الالوف من جنود الانكليز لم يحل دون منح هذه الامة حقها الصريح

أما جناب اللورد فقد جاء مصر بعد فتنة صغيرة لم يذهب فيها من عساكر الانكليز أكثر مما يذهب فى غرق سفينة اصطدمت بصخر في البحر - ثم أقام فيها مدى ربع قرن يبعد قلوب المصريين عن المحتلين كلما اقتربت ويدخل على الناشئين اليأس كلما نبض في نفوسهم عرق من الرجاء ويلاشى شيئاً فشيئاً الثقة بمواعيد أسلافه وحكومته حتى الساعة الاخيرة من وجوده في قصر ملكه

لو كنت اللورد كرومر لاقمت ولو برهانا واحدا على اقتدارى السياسي كما أقمت ألف برهان وبرهانا على اقتدارى المالي - لاوجدت في الزمن الطويل الذى أقمته في مصر لكل وظيفة مرشحين لها حتى لا تذهب الوظيفة بعد الوظيفة من أيديهم بحجة انه ليس فى مصر اكفاء للوظائف الكبرى - لقللت ما أمكن من استخدام الانكليز وخصوصا غير الاكفاء منهم للوظائف التى يتولونها فيضعون من فوائدها فى مدي التجربة الطويلة اضعاف ما يفيدونها به بعد الالمام بواجباتها بدلا من ان أصيرها انكليزية في الغالب حتى أن بعض المصالح - كمصلحة الصحة - لم يبق فيها عامل مصرى الا صغار الكاتبين

لو كنت اللورد كرومر لما اختتمت أعمالى فى مصر بهذا التقرير الاسود الذى كله تناقض وتحامل وسباب للمصريين وقضاء شر عليهم بالجمود الذاتي وغمز لدينهم وطعن على أخلاقهم وآدابهم ومبادئهم حتى اضطررت أن أرى من مصلحتى بعد ماحم القضاء أن لا يظهر فى مصر قبل سفرى مترجماً مجسما بالعربية في كتاب واحد تتناوله اليد وتجول بين أوله وآخره العين - وهذا سر عدم صدوره الى الآن من ادارة المقطم ونشره بين الناس كيلا يهيج ما فيه غضب المصريين - وليس العذر فى التأخير تراكم الاشغال الذى أصبح واهنا الآن بعد ما مضى عليه نحو شهر من الزمان

هذا عن الامس

وأما عن الغد

فلو كنت اللورد كرومر بعد استقالته لحاولت أن أصلح ماذهبت بي ظروف المنصب الى افساده . اذلاريب عندنا أنه سيخلو بجناب السيرغورست خلفه خلوة سياسية قبل سفره. ثم لاريب عندنا أن الحكومة الانكليزية ستستشير جنابه فيما يتعلق بمهام مصر لاختباره الطويل الذى لايوجد فى انكلترا من يساويه فيه أو يقاربه

فلو كنت اللورد كرومر لقلت للسيرغورست اثناء الخلوة الاخيرة بين التسليم والوداع. نحن هنا لاثالث بيننا وغايتنا معا واحدة وهى أن تقدس مصلحة حكومتنا ونعزز نفوذها في مصر فاتعظ بأغلاطى واسترشد بنبراس حسناتي . واعلم أن سياسة ٢٤ سنة اقنعتنى أن السياسة الفضلى هى فى محاسنة الامة لافى مخاشنتها ــ فى اللين لافى العنف

وانى لاأكتمك هذا السر العظيم وهو أننى بعد الذى جرى من الحوادث الاخيرة لم أتمكن من استمالة الامة المصرية الىّ والى حكومتى فاتعظ بما جرى وأصلح مامنعتنى كرامتى من الرجوع فيه . احترم دين هذه الامة تملك اعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطأطئ لك هامات الشعب احتراما ومودة . ساعدها على الحكم الذاتي لانها أصبحت بفضل رعايتى لها قادرة فى الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء فانك لاتستطيع أن تصده الابااللين وحسن المعاملة

ولو كنت اللورد كرومر لعقدت النية بعدعودتي الى انكلترا على مساعدة حكومتى بقوة الارشاد والنصيحة علي تفهيم المصريين أن الاحتلال لايريد محو وطنيتهم ولا ملاشاة قوميتهم ولا القضاء على أهليتهم وقابليتهم

ولكذبت تلك الجرائد التى أوهمت الناس أنها تتكلم بلساني وتخاطبهم ببيانى عند ماقسمت الوطنية فى مصر الى وطنيــة مصرية وأوربية مصرية وسورية مصرية (كماقال المقطم منذ يومين)

فان شرخطة هذه الجريدة لايزال عالقا بذيل اللورد كرومر حتى بعداستقالته ويخشى اذا ظلت على تقربها من الوكالة البريطانية في عهد المعتمد الجديد أن تزيد الخرق اتساعا

بين الامة والوكالة بمثل هـذه المزاعم التى يصـل أذاها الى اعماق قلوب الاهالى . وليس أشد من الاذى الذى يسلب الامة وطنيتها و يوزعها على كل من رأى فى مصر مرتزقا ينزل بها هابطا فيصبح فى الغد شريكا للوطنى الاصيل في كل حقوقه

هذا وأمثاله ما كنت أفعله لو كنت اللورد كرومر. فهل هو فاعل ؟ وهل جناب السير غورست بعد ما أصبح اللورد كرومر في مكانه ومكانته و وظيفته فاعل ما يقرب منه قلوب المصريين وما هو مزيل لسوء التفاهم الذي وقر بينهم و بين المحتلين ؟ ؟ . اللهم ذلك ما نرجو واللهم آمين

(المؤيد في ١٦ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٢٩ ابريل سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥١)

٧

المعتمد الجديد في قصر الدوبارة

يرى القراء أننا قد جعلنا العنوان العام لهذه المقالات رمزا على التغيير العظيم الذى حصل فى مركز الدولة البريطانية فى مصر . فان يوم الاربعاء الماضى الموافق ٢٤ ابريل مفسر لهذا الرمز لانه فيه وصل الى القاهرة السير ألدون غورست معتمدا جديدا خلفا للورد كرومر بعد ٢٤ سنة قضاها فى هذا المنصب الجليل

والسير ألدون غورست قد جاء مصر لا كما جاء الماجور افلن بارنج في أول عهده . جاءها من نظارة الخارجية الانكليزية مدرسة الدهاء السياسى والحكمة الناتجة عن الاطلاع الواسع والوقوف على أسرار السياسة والمقاصد الكامنة فى بطون الاوراق وصدور الرجال

فهو يختلف عن اللورد كرومر في أن هـذا جاء مصر وحالها غير حالها اليوم فجعلها مدرسته وموضوع تجاربه ومن كان كذلك فهو كثير التعرض للاغلاط كثير الاعـذار فيما يسيء . نعم ان جنـاب اللورد عمل أعمـالا عظيمة دلت على مهارته وقدرته وقوة جلده ولـكن قلما جعل انسان العمل مدرسته الاولى وأتم تجاربه فيه حتى الممات

أما السير غورست فقد مضت أيام درسه واختباراته . تلقى دروسه الاولى في مصر حتى وصل الى ذروة وظائف المستشارين فيها فأحاط بكل شيء من أحوال المصالح المصرية علما ثم غادرنا حيث لبث فى وزارة الخارجية ثلاث سنوات كاملات كافيات لان تخرج

التلميذ من مدرسة المعلمين أستاذا كاملا وعلى ذلك قد جاءنا حائزا لشهادة عالية فيما أحرز من علوم السياسة فلا ينتظر أن يتعلم دروسها على نفقة مصر من جديد

ثم هو قد امتاز على سلفه بأنه جاء هذه البلاد والهدو شامل والعسر المالى زائل وعداء الدول غير موجود على الاطلاق بخلاف الاول فانه جاء مصر والقلق السياسى لايزال ضاربا أطنابه فيها أثر الثورة العرابية والعسر المالى محيط بها من كل جهاتها الست وعداء الدول يكاد يسد عليه كل طريق ويأخذ منه بالخناق . ولئن كان ذلك الحال يذكرنا بفضل كفاح اللورد وصبره على تكبد المشاق وجهاده في سبيل اصلاح الاحوال المالية حتى صلحت الا أن هذا كان مضيعا جهدا كبيرا على المعتمد القديم يجد المعتمد الجديد نفسه فى راحة من عنائه وفي غنى عن أن يضيع طرفة عين من وقته فيه

وامتاز أيضا عليه بأنه جاء البلاد وقد ترقت في كل مظاهر الحياة . فى ماليتها وثروتها . فى عمرانها وحضارتها . في معاملاتها مع الاجانب من كل قبيل . وفي معارفها أيضا لا لان سلفه عني بها من هذا الجانب كما ينبغى ولكن جريا مع سنن الطبيعة التى تذهب بالامم الى التقدم البشرى مالم يعقها عنه عائق بخلاف سلفه فقد جاءها والامة غيرها الآن في كل ماتقدم . فاذا كان قد عنى الاول بخلق الامة من جديد وتكوينها في قالب المدنية الاوروبية على مايريد كما وصفته بذلك الصحف الانكليزية فانما يعنى الثانى من العمل تحسين وزخرف يحتاجان الى دقة نظر وحسن ذوق لا الى جهد ذاك وعنائه . ان الامة المصرية يوم جاء اللورد كرومر كانت فى نظره أشبه بطلسم من طلاسم الهيلغريفية قبل حل معماها فيعمل فيها ماعمل الفرنساويون الذين حلوا خطوطها القديمة قبل قرن من الزمان . وأما ماهى الآن فكتاب مفتوح يقرؤه السير غورست كلما جال ببصره فيه ويفهمه بما خصه الله به من الذكاء بلا عناء ولا حاجة الى ترجمان فهى تنتظر من عميد قصر الدوبارة الجديد أن لايسئ فهم كتابها بتحريف المحرفين ووشايات الواشين . وسواء استقال اللورد كرومر لاسباب صحية والسياسة ثابتة لاتتحول أو فيها شئ من التحويل فانه لاخلاف فى أن المعتمد الجديد قدجاءنا بأوامر جديدة ضرورة ان تلك الاستقالة جاءت في ظروف على مصر غير التى كانت فيها من قبل . ونحن نأمل أن تكون تلك الاوامر نافعة لنا ولانكلترا

أما لنا ففى مراقبة مالم يفلح فيه سلفه وتجنبه . وأما لانكلترا فى بذل الوكالة البريطانية على عهد هذا المعتمد الجديد الجهد لتحقيق آمال المصريين لانه ليس من مصلحة انكلترا على كل حال أن تبقى في مصر ٢٥ سنة أخرى مضطرة لان تعتمد على جيش احتلال يساعدها على تنفيذ مقاصدها وعلى زيادته كلما حدث حادث . وهذا مالابد منه اذا جرى المعتمد الجديد على طريقة المعتمد القديم وخطته العملية

ان الذي يهم انكلترا في مصر وقد أطفأت نيران الثورة العرابية وأيدت العرش الخديوى ونظمت مالية البلاد وأصلحت طرق الري و بنت الخزان وفصلت نظامات الاعمال تفصيلا حسنا أن يبقى مركزها فى مصر ممتازا على كل مراكز الدول الاخرى لتكون لها بمثابة الربيبة لانكلترا تذكر فضلها على الدوام وتستمد معونتها كلما احتاجت الى معونة

فليكن شأنها كذلك على الرأس والعين . ولكن لا يلزم من هذا أن تبقى مصر في حكم القاصر الذى لايرشد والجاهل الذى لايتعلم . والعضو الذى لا يتحرك بعمل . والفكر الذى يشله التعطيل . والارادة التى تخدر حتى تموت

انك لو جئت صاحب دار متهدمة فتوليت بناءها وتشييدها وزخرفها بماله وبأولاده يعملون فيها كالفعلة . فلك أن تفتخر بهمتك و بحسن صنيعك وصنعك كمهندس ماهر ذى ذوق جميل اذا ظهرت الدار على أكمل الصفات بناء وزخرفا . ولك أن تعتبر صاحب الدار مقصرا فى حقك بعد ماتطوعت باحسانك عليه اذا لم يحلك جانبا لائقا من داره مادمت فى حاجة الى البقاء معه بها . وكافرا بالنعمة جحودا للجميل اذا لم يذكرك بخير كلما جال نظره في جنباتها

ولكنك اذا نزعت بعد تمام البناء والتنسيق الى سكناها دونه واتخذت من صاحب الدار وابنائه خدما وحشما تقهرهم على أداء المهن الممتهنة وتجعلهم بين يديك بمثابة العبيد يخدمون ويهانون كنت غالبا مغيرا فلا تنتظر من أهل الدار الاصليين انبساط الوجوه وشكر القلوب على ماتسميه نعمة لهم لانك أبقيتهم في خدمتك ولم تطردهم من دارهم ولانك صرت تعطيهم من فضلات طعامك الشهى بعد ما كانوا في شظف من العيش ! !

ان الاحتلال الانكليزى لاينبغى أن ينتظر من المصريين شكرانا وامتنانا للمحتلين اذا

كانوا يجدون أنفسهم فى وطنهم غاية الامر بمنزلة أولئك الخدم الممتهنين مع السادة الوافدين .
وهـذا كان مآل السياسة التى جرى عليها المعتمد القديم فى وظائف الحكومة المصرية وتجريد المصريين منها يوما فيوما واعطائها للمحتلين حتى امتلأت الدواوين بالمئات منهم فاذا حل انكليزى في وظيفة لايلبث أن يتلوه آخر من أبناء جلدته حيث يأخذ كل واحد محل غيره من الوطنيين وهلم جرا طردا وعكسا فلم تبق لهؤلاء في بعض المصالح الا ماهو من قبيل المهن الآلية الصغيرة والباقى من المصالح الذى لم يؤخذ أخذا كاملا جار على طريقة ما أخذ منها فاذا مامضت على الاحتلال ٢٥ سنة أخرى وهو جار على هذا المنوال أصبحت حكومة مصر كحكومة السودان الآن ولكن ذاهبة للوراء لا للامام . ويومئذ تكون انكلترا قد ملكت مصر قالبا وشردتها عنها قلبا . ويومئذ تشعر مصر بأنها خدعت تماما وأخذت فى غرتها فلا يكون حالها مع انكلترا حال الشاكرة الذاكرة نعمة وجميلا

فيا أيها المعتمد الجديد وقد عهدناك من الذكاء النادر على مايعرفه لك الخاص والعام . لا نسألك أن تغير سياسة قررت دولتك الثبات والاستمرار عليها فانما الذى يطلب منك هذا أحمق لايدرى من الامور شيئا . وانما نطلب منك أن توفق ما استطعت بين مصلحة الاحتلال ومصلحة مصر. ويكفى لهذا أن يكون الانكليز مشرفين على المصالح المصرية اشرافا عاليا ومرشدين ارشادا بعيدا عن تهمة الانانية البالغة التى ظهر بها شأن الاحتلال في مصر حتى الآن . يكفي لهذا أن يكون لقصر الدوبارة رأى الناصح الصادق المرشد لخير الامور وأن يكون له مشرفون على الاعمال كهؤلاء المستشارين الذين وجدوا فى المصالح ولأن يكون لهم بعض أعوان في الاعمال الفنية العالية التى يقصر عنها عنق المصرى فى حال تدريبه وتمرينه . ولكن اذا انقلب ذلك الارشاد أمرا فى كل شئ وتبدل ذلك الاشراف تداخلا في كل شئ واحتقر عمل المصرى وفكره وارادته في كل وظيفة ــ انقلبت صور الاشياء الى عكس المطلوب وضاعت مصلحة مصر تحت مواطئ أقدام الاثرة الانكليزية ضياعا تاما

أيها المعتمد الجديد قد كنت موظفا فى الحكومة المصرية غير بعيد عهدك وربما كنت فى الداخلية أوفى المالية مستشارا تنازع الناظر سلطته لتلاشيها وتحب ان ينفذ أمرك على من دونك بلا مراجعة فيقال لنا كيف تطلبون منه اليوم في أمر المستشارين مثلا مالم يكن يرضاه لنفسه أمس

ولكن شتان بين ما كان عليه المعتمد الجديد أمس وما صار اليه اليوم . كان بالأمس عاملا في وسط تشرف عليه تلك السلطة الكرومرية التى كان من مبادئها السياسية اطلاق العنان للموظف الانكليزي يعمل كما أراد ويميت من ارادة الموظف المصرى ما أراد فلم يكن له وهو فى ذلك الوسط الا أن يأخذ شأنه بين أقرانه وحظه من وظيفته على الطريقة التى سنت له . وكان النصاب لم يبلغ الحد الذى بلغه الآن وبانت عواقبه سيئة للناظرين

أما اليوم وقد جاء السير غورست مدبرا أول لنظام الادارة المصرية مشرفا عليها من فوق تلك القمة العالية التى غررت بسلفه فتخيل نفسه فيها قيصرا ـ فعليه مسئولية المدبر الاول الذى يتعظ باغلاط من تقدمه فيرى من الواجب عليه أن يتجنب سيآته وينتفع بتجار به الحسنة فيضاعف من حسناته

كان اللورد كرومر في مصر ينظر الى كل شئ يروقه فيها فيجده نتيجة عمله والى كل شخص من كبار الموظفين فيجده من صنائعه . ينظر الى الاشياء والاشخاص فتتيه نفسه عجبا ويتعالى علو الخالق فوق خلقه . وكل مخلوق تسامى به اعجابه بنفسه الى هذا الحد صغرت عنده الغلطات مهما كانت كبيرة وقل محاسبوه عليها وان كثروا . فله من اعجابه بنفسه سلطة ومن صغر نفوس كل من حوله بين يديه سلطة أخرى تضافان الى سلطة وظيفته فعمل بالسلطات الثلاث مارفع عمله عن بحث الباحثين واعتراض المعترضين فى انكلترا ومصر معا

أما السير غورست فقد جاء مصر وأول مايرى فيها من المظاهر تلك الحفلة التى ستقام مساء يوم السبت المقبل اكراما لجناب اللورد كرومر فيقال فيها له مايقال في المعابد اجلالا وتمجيدا حتى يكاد القائلون يعزون مصر فى فراقه لها عزاء وينعونها ببعده عنها نعيا . اذا تجلى له هذا المظهر كما هو علم أن مسئوليته في وظيفته الجديدة أضعاف مسئولية سلفه وانه ان نبا سهمه وكبا جواده فلا يقال له « لعا من عثار »

اذا تجلى له هذا المظهر وكأنه فى التياترو لتمثيل رواية خيالية لاحفلة حقيقية اذا قيس بالحركة الفكرية الموجودة في مصر غير راضية عن الرجل رضاء كاملا ـ تحقق ان السياسة الفضلى انما هى في اتخاذ منهج جديد غير المنهج الذى كان عليه سلفه في طرق الغاية التى

تسعى اليها انكلترا في وادى النيل

واذا تحقق هذا علم أن تلك السياسة الفضلى مع المصريين فيما قلناه أمس وصية له لسان اللورد كرومر

« احترم دين هذه الامة تملك أعنة قلوبها . أكرم رؤساءها تطأطئ لك هامات الشعب احتراما ومودة . ساعدها على الترقي الحقيقي والحكم الذاتى فانها قادرة فى الحقيقة عليه . ولا تعارض الرأي العام بصلف وكبرياء فانك لا تستطيع أن تصده الا باللين وحسن المعاملة »

ذلك هو مجمل ما نريده من جناب السير غورست وسوف يأتى التفصيل والله ولى التوفيق والرشاد .

(المؤيد فى يوم الثلاثاء ١٧ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ — ٣٠ ابريل سنة ١٩٠٧ — عدد ٥١٥٢)

حفلة وداع

اللورد كرومر

فى الاوبرة الخديوية

هذه صورة الخطب التى ألقيت مساء أمس (السبت ٤ مايو سنة ١٩٠٧) في الاوبرة الخديوية للاحتفال بوداع اللورد كرومر

خطبة الكونت دوسريون

ياجناب اللورد

ان اللجنة التى شكلت في اليوم التالى لليوم الذى أعلن فيه خبر سفركم تمثل جميع الذين جمعتهم جامعة الاسف الشديد والامتنان المزيد بلا تمييز بين الجنس والدين والمذهب وهم يرغبون فى ان يعلنوا على رؤوس الاشهاد الاستياء الذى يشعرون به لانقطاعكم لاسباب صحية عن عمل مجيد مرتبط تمام الارتباط مدة ثلاثين سنة بالبحث عن التقدم والنجاح من أى نوع كان والسعي فى تحقيقه كما تشهد به الآن سعادة القطر المصرى (تصفيق)

ان عطوفة مصطفى باشا فهمى سيخاطبكم الآن باسم الوطنيين وموظفي الحكومة أما انا فأقول لكم نيابة عن اللجنة التى أشكرها من صميم فؤادي لانها عهدت الى ان اعرب عن عواطف أولئك الذين يهمهم ان يظهروا لكم أسفهم وامتنانهم وان كانوا غير مرتبطين بهذه البلاد رابطة الجنسية أوالوظائف العمومية

انكم لاتتوقعون منى ياسادتى ان أعدد لكم هنا الخدمات العديدة التى قام بهاجناب اللورد كرومر لهذه البلاد من حين مادعى للمساعدة في ادارتها وعين عضواً في صندوق الدين الى هذه الساعة التى عزم علي مفارقتكم فيها مزودا باعجابنا واحترامنا اللذين يفوق معناهما جميع الالفاظ التى أستطيع استعمالها لوصف هذه الاعمال المجيدة التى صارت الآن من حقائق التاريخ (تصفيق طويل)

ولا أخشي ان اخرج عن الدائرة التى رسمت لى بتجديد ذكر الاعمال العظيمة التى امتازت بها مهمة اللورد كرومر في مصر لان جميع الذين أتكلم باسمهم استفادوا كما استفاد الرعايا المحليون من أعمال الاصلاح والتقدم التى لاتحصى والتى جعلت هذه البلاد من أسعد بلدان العالم ومن أكثرها تأهيلا بقاصديها (تصفيق) وعليه فيحق لهم بل يجب عليهم أن يشتركوا مع الذين يذكرون أعمال ذلك الرجل التى هى عجيبة بوحدتها وفاعليتها وقوتها وما بذل فيها من الهمة حتى يكون الشكر لها على قدر النفع (تصفيق)

هذا واننى لاأقصد الدخول في تفاصيل الاعمال المختلفة الانواع التى الفضل فيها لنصائح اللورد كرومر الرشيدة والتي سمحت على مانعلم جميعاً للاجانب المقيمين فى هذه البلاد بان يشتركوا في خيراتها وسعادتها في كنف الامن والتسامح اللذين ليس ثم مايعادلهما فى جهات العالم الاخرى

ولكن ليسمح لى أن أشير الى النظام الجديد الذى ولدته فكرة اللورد كرومر وتركه قبل ان يخرج الى حيز العمل . هذا وان جميع نزلاء مصر على اختلاف أجناسهم يؤملون تحقيق أمانيهم في هذا الموضوع. أقول ذلك ياحضرة اللورد ولكن لاأستطيع ان أؤكده تأكيد أقوالى السابقة ولالى صفة رسمية لذلك

أما الامر الذي أشعر أني مفوض تمام التفويض بقوله هوأنهم جميعاً بلااستثناء سرور أعظم

سرور من الاهتمام الذى أبديتموه فى اعداد هذا المشروع للوقوف على آراء عدد عظيم من أصحاب الآراء فكان تأثيرذلك فى الاوربيين انهم أيقنوا بانكم تريدون أن تساعدوهم على تحسين حالتهم المادية والادبية زيادة عما تحسنت

لاتخافوا ياسادتي فانى لاأطيل الكلام في هذا الموضوع المتصل بالسياسة العليا رضيت بذلك أولم أرض ولم أنس اننا لم نجتمع هنا الا لنظهر لك ياجناب اللورد في حفلة جمعت جميع الاصناف والطبقات والطوائف فى ساعة مفارقتك لارض مصر الجميلة التى تفيض على أفضل كنوزها ـ ان الشكر الصادر عن الادراك وشرف النفس ينمو في هذه الارض تحت شمسها النافعة كثمار تربتها فنقدم لك فى هذه الساعة الجامعة بين الحزن والبهجة أجمل الثمار التى تسر بها نفسك (تصفيق)

ألا فاسمح لى ياحضرة اللورد ان أضم الى اسمكم اظهار أسفنا وميلنا واحترامنا اسم تلك التى ساعدت كثيرا بلطفها وفضائلها الكثيرة مافيك من صفات الحزم والعزم التى رفعت شأن مهمتك أعني بها المساعدة اللطيفة لاعمالكم التى تعملونها كل يوم لخير البلاد وسعادتها وهى لادى كرومر التي ستبقي صورتها حية في ذاكرتنا ممثلة الصلاح وجانحة على الدوام الى مساعدة الفقراء وتعزيتهم وتخفيف آلامهم (تصفيق)

وعليه فاننا نوجه اليها كما نوجه اليك الدعوات الصادرة من صميم أفئدتنا جميعا طالبين من الله سبحانه وتعالى أن يمن عليكم بالشفاء حتى اذا أجيبت دعواتنا تمتعتم زمانا طويلا بأحسن جزاء يجازى به الانسان في هذا العالم وهو السرور الذى يخامر فؤاد من يرى في اعتزاله الهنيء البذور التي زرعها تنتج ثمرا يانعا (تصفيق)

ياسادتى انى انتهيت من خطبتى ولكن ليسمح لى جناب اللورد ان أزيد كلمتين على ماقلته كلمتين فقط ولو كان فى ذلك اخلال لنظام البيان المرسوم لهذه الحفلة فقد تكلمت باسم اللجنة العمومية التى تألفت كما أشرت الى ذلك قبلا فانتهت مهمتى ولكن يلوح لى ياحضرة اللورد انى لم أنجزها كلها اذ لم أقدم لك احترام واكرام لجنة أخرى عينتنى رئيساً لها وهى تؤلف من أعيان الاوربيين في هذه العاصمة الذين لايشغلون وظائف رسمية ولكنها اعتمدت أن لاتظهر بل تقدم عليها هذه الحفلة التى هى أعم من سواها وبالتالى أقدر على

اظهار الاكرام الواجب لك وعليه فانني لاأخطب خطبة ثانية باسم تلك اللجنة اكرر فيها الاقوال التى قلتها فى خطبتى لان الحقيقة واحدة وجميع أنواع البيان التي استعملها للتفنن فى أساليب التعبير عن عواطفنا لاتزيد شيئاً على الكلمتين المهمتين. على الكلمتين اللتين نطالب منك ان تحفظهما في ذاكرتك كما نحفظهما نحن أيضا فى ذاكرتنا وهما الاسف والشكر (تصفيق طويل) واذا كنت قد تذرعت بصفتى خطيبا رسميا لارفع اليك هذه الامنية الخصوصية فما ذلك الاظنا مني بانها ربما تزيد فى جزية الشكر الواجب الذى كلفت ان أرفعه اليك

ثم ان كلمتى الثانية تتعلق بشخصى خاصة ياحضرة اللورد فانه يستحيل علىّ ان أعود الى مقعدى بعد ان تكلمت باسم الذين كلفونى ان أترجم لكم عن عواطفهم بدون ان أعلن سرورى من اناطة هذه المهمة التي انتدبت لها برجل فرنسوى . ويظهر لى اننى اكون ناكرا للجميل اذا لم أعلن على رؤوس الملا لزملائى أعضاء اللجنة التى أمثلها امتنانى وشكرى لهم على العناية التى حملتهم على اختيارى مندوباً لمخاطبة رجل حكومة مركزه في المقام الاول بين الذين ساعدوا أعظم مساعدة على مااتفقوا ان يسموه بهذا الاسم اللطيف وهو الاتفاق الودادى (بين انكلترا وفرنسا)

خطبة اللورد كرومر

الفرنسوية

جناب الكونت وحضرات السادة الكرام

لست آسف في هذه الساعة من شئ سوى قصور معرفتى باللغة الفرنسوية البديعة عن التعبير اللائق عن كل ماأشعر به في قلبى فأرجو ياجناب الكونت أن تعتقدوا انى أشكركم خالص الشكر بالاصالة عن نفسى والنيابة عن اللادى كرومر على مافهتم به الآن من الكلام المتناهى في اللطف وحسن الانعطاف وماذا أقول أيها السادة فى مقابلتكم لخطبة الكونت دوسريون ومافيها من فرط المديح . انى أشعر كمن كشف له سر عظيم اذ لم أكن أعلم ان لى أصدقاء هذا عددهم وهذا مقدار حلمهم وكرم أخلاقهم (تصفيق) . والذى يؤثر فيّ

خصوصا أيها السادة ان هذه الحفلة جامعة لاناس من أمم عديدة فهي بهذا الاعتبار حفلة مختلطة أودولية فاستميحكم استنتاج هذه النتيجة مما رأيت منكم فيها وهى أنى رغما عن الصعوبات الكثيرة التى لاتفارق مركزا مثل المركز الذى قضيت فيه ٢٤ سنة لم أكن فى اعتبار جماعة من ذوى الرأى الصائب مثلكم بالرجل الرديء دوليا (ضحك) والواقع اني كنت أقول فى نفسي دائما ان أول واجب عليّ هو فعل كل ما يطلب فعله منى للدفاع عن مصالح بلادى ومصالح مصر . وانما وضعت بريطانيا العظمى ومصر فى كفة واحدة لانى آبى ان أعتبر كلا منهما على حدة اذ كل من يدرك حقيقة مصالحهما يعدها مصالح واحدة

على اني علاوة على كوني انكليزيا ـ بل انكليزيا مصريا ـ لم أنس قط اني أوربي أيضاً . وان رغد عيش الجاليات الاوربية العديدة المهمة النازلة في هذا القطر يعد مصلحة مصرية وبالتالى مصلحة بريطانية من الطبقة الاولى وأنا أغادر مصر مقتنعا بصحة هذه القضية كل الاقتناع واذا سنحت فرصة أو اقتضت ضرورة فلست أتغاضى عن الدفاع عنها

هذا وأعيد لكم أيها السادة شكرى الصادر من صميم فؤادي راجيا أن تسبلوا ذيل المعذرة على هذه العبارات المختصرة وسأتشرف بعد قليل بمخاطبتكم باللغة الانكليزية

خطبة

عطوفة مصطفى باشا فهمى

ياجناب اللورد

بلسان الحكومة وبلسان السواد الاعظم من الامة المصرية أبدى لجنابكم شعائر الاسف الاكيد على مفارقتكم هذه الديار أسف تتزايد شدته على الخصوص لعلمنا أن الباعث الذي أوجب هذا الرحيل هو اعتلال صحتكم التي ضحيتموها باحتمال المشاق ومواصلة الاتعاب في سبيل القيام بما فرضه عليكم حبكم لهذه البلاد وتفانيكم في المساعدة على توطيد قواعد الثروة فيها بلا ملل ولا انقطاع عن العمل

ولم تنس مصر ان حسن الحال الذي وصلت اليه والذى استوجب الاعجاب العام هو نتيجة ارشاداتكم السديدة وموازرتكم الاكيدة

نعم ان التاريخ خير كفيل بتسجيل ما أحرزته من أسباب التقدم والارتقاء و بتقدير هذه المآثر قدرها من الاكبار والاجلال ولكن لى كلمة أقولها الآن بوجه الاجمال وهى ان الفلاح المصري قد جنى ثمرات هذا الاصلاح وأحس بنعمة هذا الاسعاد ماديا وأدبياً بأكثر من كل انسان سواه (تصفيق حاد)

هذا العمل المجيد سيخلد اسمكم الكريم و يدعو مصر اليوم كما انه يدعوها في مستقبل الايام الى الاعتراف لكم بهذا الجميل

وفي هذا المقام أعرب أيضا عن أسفنا لمفارقة اللادى كرومر التى استأسرت قلوب البائسين بحنانها واحسانها وخففت مصابهم بحسن مواساتها فاستحقت بهذا الصنيع شكر الخاص والعام (تصفيق شديد)

انكم ياجناب اللورد قد أخصلتم لمصر الودّ وجعلتم أجمل سنى حياتكم وقفاً على خدمتها فصرنا على يقين تام بأنكم ستوالوننا بعنايتكم على الدوام بما لنا على ذلك من الشواهد العديدة

ولا غرو اذا اغتنمنا هذه الفرصة لنعرب لكم فيها عن شدة تعلقنا بكم ولنقول اننا لا نزال نعتبركم كواحد منا (استحسان)

الخطبة الانكليزية

حضرات أصحاب السعادة والسادة الكرام

(الديباجه)

أرجو أن تقابلوا أقوالى بالحلم والاغضاء فان خطابى هذا يكلفنى جهدا عظيما جسديا وأدبياً . أما جسدياً فلانه يلزمنى أن أجمع قوتى كلها لاخطب عليكم وأما أدبيا فلان اللطف الذى غمرنى به الناس على اختلاف طبقاتهم في الاسبوع الذى فات قد غلبنى وحملنى جميلا كثيرا ولانى أشعر بألم الحزن الشديد فى نفسى على فراق هذه البلاد التى لى فيها

أصدقاء كثيرون و بها تقترن كل الحوادث التى حدثت لى في خدمتى العمومية وكذلك الافراح والاتراح التى أصابتنى فى حياتى المنزلية ومعيشتى العائلية مدة جيل تقريبا

(أسباب مفارقة هذا القطر)

اني لاأفارق هذا القطر أيها السادة لاسباب سياسية (تصفيق طويل حاد جدا) وانما أفارقه لان يد الدهر ابتدأت تثقل عليّ ولانى بعد ماقضيت في الخدمة العمومية نحو نصف قرن كنت في أكثره أكد كدا وأعدو عدوا يحق لى الآن أن أنال نصيبي من الراحة (استحسان) . ولانى أشعر أيضا ان المهام والمصالح العظيمة التى يطلب من وكيل الدولة البريطانية السهر عليها في هذا القطر يكون السهر عليها الآن أوفى وأتم اذا عين لها من هو أصغر سنا وفى ابان قوته ونشاطه عقلا وجسدا(اسمعوا اسمعوا)

(رد الثناء . واللادى كرومر)

أرى قبل التكلم في أمور أخرى أن أقول كلاماقليلا عن الاشارات اللطيفة والعبارات الرقيقة التى فاه بها جناب الكونت دوسريون وعطوفةرئيس النظار عن السيدة التى هى معينتى فى حياتى . فقد وقعت أقوالهما وقعا شديدا فى نفسى ولا أشك انها وقعت كذلك في نفسها أيضا . وهذا موضوع لو أطلقت لنفسي العنان فيه لعدوت فى ميدان الفصاحة شوطا بعيدا (ضحك) ولكنى أملك عواطفي لاسباب ظاهرة وأكتفى بقولى انى لما كنت أصغي الى الخطبتين اللتين سمعناهما كنت أتمنى أن أكون مكان الخطيبين الكريمين وأطرى اللادى كرومر عوضا عن أن أرد على الثناء والاطراء (تصفيق وضحك) وربما جازلى في هذا المقام أن أقول انه كان من أقرب الامور الى قلب اللادى الاشتراك مع غيرها من السيدات المحسنات في تقليل الوفيات من الاطفال وتخفيف فتك الآفات بهم فتكاذريعا فعسى ان هذا العمل الذى ابتدأ ابتداء حسنا لايهمل فى المستقبل (تصفيق)

« المستر فندلى »

ولست أطيل الشرح أيها السادة فى تاريخ ما مضى ولا أستطيع أن أشير الى جميع الذين أسعدنى حظى بأن أكون شريكا لهم في انشاء مصر الجديدة وانما أقول اني

كنت دائماً أنال أكثر من نصيبي من مديح الناس على كل أمر حسن تم في هذه البلاد حديثاً والحال انى لولا مؤازرة غيرى من المصريين والاور بيين أبناء أمتى وأبناء الامم الاخرى لما استطعت أن أعمل شيأ مما عملناه وأقول انه لم يعمل أحد منهم عملا أنفع مما عمله المستر فندلى الذي كان ينوب عنى فى ظروف وأحوال لاتخلو من صعوبة خصوصية مدة غيابى فى السنوات الاخيرة (تصفيق)

(كثرة الاصدقاء)

لاريب عندي ان في الاربع والعشرين سنة التى قضيتها فى وظيفتى هنا ارتكبت خطأ كثيرا ويحتمل أن يكون قد عادانى أناس أيضا ولكنى أؤمل أن يكون وجودكم هنا اليوم دليلا على اني ربيت لى أصدقاء كثيرين أيضاً (تصفيق شديد وهتاف)

وقد أثر فيّ حضور كثيرين من رصفائى الاجانب الذين كانت العلاقات الشخصية بينى وبينهم على غاية الوداد كما كانت بينى وبين الذين سبقوهم أيضا

(المغفور له الخديو توفيق باشا)

قلت انى لا أستطيع أن أتكلم عن جميع الذين كانوا شركائى فى العمل لكن ذكر واحد أواثنين من أكابرهم يخطر الآن فى بالى وتتردد صورتهما بجلاء وقوة أمام ذهني حتى لايسعنى الا أن أذكر اسميهما فى هذا المقام . فأقول كلمة أوكلمتين عن شخص أرى ان الناس لم يعطوه حقه ولا أنصفوه وأريد به المغفور له سمو الخديو توفيق باشا (تصفيق) على انى لا أقصد أن أسرد ألفاظ المدح الفارغ أو أورد الاقوال والعبارات المصطلح عليها بلا نظر الى صحة معانيها بل انى أعنى ما أقول فتوفيق باشا كان يعرف بلاده ويعرف أهل بلاده أيضا حق المعرفة وكان شبه حلقة الاتصال بين المصلحين والشعب المصرى يلطف من شدة غيرة الاولين أحيانا ويبذل نفوذه مع الآخرين لنفى خوفهم من الاصلاح الذى كان حينئذ يفوق خوف المحافظين المتطرفين فالتاريخ يكون ظالما لا عادلا ان لم يجعل لتوفيق باشا مقاما ذا شأن بين الغابرين من الملوك والامراء الشرقيين وهو لم يكن يشترك بنفسه كثيرا في اصلاح مصر وتجديدها ولكنه كان لحكمته وحسن فطنته ينشط ويؤيد الساعين

في تجديدها واصلاحها (تصفيق)

« المرحوم نوبار باشا »

وهناك شخص آخر من عظماء الزمن الماضي يخطر الآن على بالى وتتردد صورته في هذا المقام أمام ذهنى . فالذين يعرفون منكم أيها السادة تاريخ العهد الماضى فى مصر والذين قرؤا تقريري السنوى الحديث يعلمون ان ما اقترحته لتعديل نظام الامتيازات الاجنبية انما هو بمثابة تتمة للعمل العظيم الذي يحكي أعمال أرباب السياسة والذى خط المرحوم نو بار باشا خطته الاصلية « تصفيق كثير »

« دولة رياض باشا »

وأذكر أيضا اسم رجل آخر من أرباب السياسة وأنا مسرور بمشاهدته الآن بيننا ألا انه صديقي القديم المؤتمن دولة رياض باشا (تصفيق شديد طويل. وهنا أحنى دولة رياض باشا رأسه علامة الامتنان)

اننا أيها السادة في زمان لايحتاج فيه الشاب المصرى الذى يتظاهر بمظهر المصلحين الى شجاعة تذكر . ولكن ماهو كائن الآن لم يكن كذلك طول الزمان بل كان لاسماعيل باشا رحمه الله طرق عنيفة فى معاملة الذين لا يطأطئون الرؤس أمامه ولا يعنون لهيبته (ضحك) ومع ذلك وقف رياض باشا منذ ٣٠ سنة واعترض بكل جرأة على سوء الادارة وأقام الحجة على فساد الاحكام الذى كان متغلبا على مصر فى تلك الايام . وعلق الجرس بعنق الهر (١) فأعجبت بشجاعته هذه حينئذ . وكثيرا ماوقع بينى و بين صديقى و رصيفي القديم خلاف بعد ذلك ولكنى لم أكف قط عن النظر اليه بعين الاعتبار بل بعين المحبة التى تستحقها صفاته العبقرية (تصفيق كثير)

(عطوفة مصطفى باشا فهمى)

وماذا أقول عن صديقى العزيز عليّ السامى المقام في عينى عطوفة مصطفى باشا فهمى (تصفيق حاد وطويل جدا) فقد قضينا السنين الطوال ونحن كلانا على أعظم صداقة

---

(١) المترجم أشبه بمثل يضرب فى الشجاعة

شخصية فأولا أقول انه من أعظم الذين التقيت بهم في حياتي لطفا وأكرمهم أخلاقا وأحسنهم مناقب (هتاف شديد وتصفيق حاد) امتاز بتمام الاخلاص والاستقامة والحرية والصدق في كل عمل من أعمال حياته (تصفيق) . وثانيا أقول انه خدم أهل بلاده أجل الخدم ولكن بطريقته المعهودة من السكينة والهدو والابتعاد عن التعرض لغيره والدخول فيما لايعنيه وأنا أعلم أن هذه الاقوال القليلة لاتوفي صفاته الجليلة بعض حقها (تصفيق) ولكنه لايزال لدىّ قول كثير والوقت يقضى علىّ أن أقتصر فيما أقول

(سعادة بطرس باشا غالى)

ومما أوجب لى السرور العظيم انى عاشرت ناظر الخارجية المصرية سعادة بطرس باشا غالى معاشرة طويلة (تصفيق كثير) وكان يؤدي أعظم منفعة وأجل خدمة بما أوتي من ثاقب البصيرة وسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات التى تنجم عن حالة البلادالسياسية الخصوصية (تصفيق)

(سعادة سعد باشا زغلول)

وأذكر أخيرا أيها السادة اسم رجل لم أشتغل معه الا من عهدقريب لكن معاشرتي القصيرة له قد علمتنى أن أحترمه احتراما عظيما وان أصاب ظني أولم يخطيء كثيرا فسيكون امام ناظر المعارف الجديد سعادة سعد باشا زغلول مستقبل عظيم للمنفعة العمومية (تصفيق حاد طويل) لانه حائز لجميع الصفات اللازمة لخدمة بلاده فهو صادق مستقيم كفوء مقتدر شجاع فيما هو مقتنع به وقد احتمل الطعن والذم من كثيرين دونه فضلا بمراحل من أبناء وطنه فهذه صفات سامية فالواجب ان صاحبها يتقدم كثيرا (تصفيق كثير)

(السير كولن سكوت منكريف)

(والسير وليم جارستن والمسيو مسيرو)

أما شركائى فى العمل من الاوربيين فغاية ما أقوله عنهم انى أشكرهم من صميم فؤادى على مساعدتهم التى لاتثمن وعلى شدهم أزرى في أحوال محفوفة بمصاعب عظيمة ولا يسع المقام ذكرهم الآن كلهم بأسمائهم ولكن ان كان فيهم من يجب على أهل هذه البلاد أن يعزوا اسمه خصوصا فلعله السر كولن منكريف والسير وليم جارستن وأعوانهما

الذين أعطوا المصريين أعظم مايحتاجون اليه وهو ماء الري . وأضيف الى اسميهما اسم رجل فرنساوى شهير جليل وهو المسيو مسبرو الذى أكسبته ابحاثه العلمية فى تاريخ مصر القديم ماهو حقيق به من الصيت الطائر في الآفاق

(السر رجينلد ونجت باشا)

أخيرا أيها السادة أقول انه لم يكن يهمني و يلذلى من كل واجباتى أكثر من واجباتي المختصة بالسودان وسأعد اشتراكى مع السر رجينلد ونجت واعوانه الغيورين الاكفاء في الاصلاح العظيم الجارى فى تلك البلاد منذ أعوام مصدرا أستمد منه الفخر والسرور كل ايام حياتى (تصفيق كثير)

(حسن ظنه بالمصريين وحسن اعتذاره عنهم)

فبمساعدة الذين ذكرتهم ومساعدة كثيرين غيرهم اظن اننا عملنا عملا غير ردىء في ربع قرن من الزمن وان يكن فيه مافيه من القصور والتقصير ولكن يقول لى قوم كثيرون ان المصريين بوجه الاجمال لايعترفون كثيرا بالجميل وبالمنافع والفوائد التى لاشك في أنها منحت لهم. فأجيب على ذلك اني لا أعرف مايشعر به المصريون من هذا القبيل ولكن فيلسوفا فرنساويا قال قولا أو رد معناه ولست أجزم باقتباس مبناه قال اذا قاسى شعب آلام الظلم والضيم طويلا لم يكد يبقى له طاقة على شكر الذين يخلصونه منها

ولا ريب ان أهل مصر قاسوا كثيرا فى ماضى زمانهم ومهما كان شعور المصريين وكانت حاساتهم ومهما برهن لى المبرهنون وأقاموا علىّ الحجة والدليل فلست بتاركهم يحجوننى ليخرجونى من الوهم الشريف الذى أنا فيه ان صح أنه وهم لاحقيقة . وأعنى بذلك أنه لايمكن أن أصدق ان المصريين ـ أوأحسنهم على كل حال ـ ينكرون أن يد التمدن الغربى التى كانت تستعملها انكلترا لعمل عملها فى الخمس والعشرين سنة الماضية هى التى انتشلتهم من بالوعة اليأس بعد ماألقاهم دهرهم فيها . وهب انى اقتنعت ـ وما أنا بمقتنع مطلقا ـ ان أبناء الجيل الحاضر لايعترفون بهذه الحقيقة الجلية فاني لاأزال أؤمل مع ذلك ان نسلهم يعترف بها اذ المعتاد ان أولاد العميان يكونون من المبصرين (ضحك)

(الغرض السياسى)

أيها السادة لما أتيت هذه الديار لا تقلد وظيفتي الحالية فيها وضعت نصب عيني غرضين وجعلت أسعى اليهما دواما مدة أعوم طويلة أحدهما سياسى والآخر ادارى

فالغرض السياسى الذى وضعته نصب عيني هو أن أكون من جملة المساعدين على اعادة ذلك الاتفاق الذي قضت الاحوال بمسه بين فرنسا وانكلترا ولم تقض بذلك مقاصد حكامهما وأهاليهما ولا مطامعهم . قال السياسى الطائر الصيت المسيو غمبتا الذى كانت ارادته المتسلطة على العقول مدة تقلده منصبه تؤثر فى سير تاريخ مصر تأثيرا دائما يوصى أهل بلاده اياكم وان تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية ومذهبى فى السياسة الدولية الذى يشاركنى عدد عظيم من أهل بلادى فيه يمكن أن يعبر عنه بهذه العبارة : اياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنسوي (تصفيق) فان هذا الاتفاق الذى أشار اليه الكونت دوسريون بعباراته المطبقة مبنى على اشتراك الفريقين فى المصلحة . وعلي قرب الجوار وتشابه النظامات السياسية واحترام كل فريق للآخر احتراما ناتجا عن تلاقيهما فى ساحات الوغى كثيراً واقتتالهما فيها شديداً وعلى كون خصائص كل منهما وصفاته مكملة لخصائص الآخر وصفاته. وزد على ذلك كله انه ليس في هذا الاتفاق تهديد لاحد وانما هو صادر عن رغبة الفريقين فى حفظ السلام فى العالم فان كان في العالم امتنان تقضى عليهما الاحوال والظروف بأن تتصادقا وتتحابا فانما هما أمتا فرنسا وانكلترا (تصفيق)

فلا يخفى على أقل مبتدىء في السياسة انه مادامت هذه القرحة المصرية تنز فصداقة تينك الامتين لا بد وأن تمس ولذلك لما أتيت مصر سنة ١٨٨٣ عقدت نيتى على أن اسعى فى سد هذه الثغرة بقدر ما تمكننى دائرة وظيفتى . وكان ذلك سعيا شاقا كسعى الطالع جبلا حاملا ثقلا . فان الامتين قضتا الاعوام وكل منهما تنظر الى الاخرى شزراً وقد دارت بينهما المضاربة والملاكمة القاسية ولكنهما لم تتعد والحمد لله حد الكلام ونلت أنا نصيبي منها فقد ظلت زمنًا والجرائد الفرنسوية تذكر اسمى منعوتا بنعوت الذم الا نادراً وأظن أن أكثرها كان يلقبنى بكرومر الوحش (Le brutal Cromer) (قهقهة) وقد شبهتني مرة على

ماأتذكر بأعظم آلهة الوثنيين حبا لشرب الدماء حيث لقبتنى بمولوك (قهقهة) (١) . ولكن مداعبات الجرائد هـذه هي في المناقشات السياسـية كالافاويه والتوابل في الطعام فتكسبها حياة وتزيدها نكهة ورونقا فلا يحسـن بالانسان ان يحفل بها كثيرا لاسيما وان زمانها قد مضى لحسن الحظ وانقضى وتغيرت لهجـة الجرائد الفرنسوية حتى لقبتنى مرة في هذه الايام بهذا الشيخ الجليل Cet illustre viellard (قهقهة) على انى أفرغت الجهد مدة أعوام كثيرة في المساعدة على عقد الاتفاق بين الامتين وأقول الآن ان أسعد يوم من أيام خدمتى في مصر كان يوم ٦ ابريل سنة ١٩٠٤ الذى وقع فيه الاتفاق الانكليزى الفرنسوى لست أدعي أنى كنت من أشهر واضعى ذلك الاتفاق بـل أعترف ان الفضـل فى عقده كان لارباب السياسـة المتولين زمام الامور الخارجية ومئذ فى باريس ولندن وربما جاز لى من غير ان أمس واجب الاكرام والاحـترام ان أضيف اليهم مليكنا السامى النهى العظيم المواهب العقلية الذى نلت الفخر والامتياز بخدمته السنية (تصفيق) ولكن يسوغ لى ان أقول ان الجهـد المتواصل الذى بذله أولو الشأن فى مصر مدة أعوام طويلة لاجتناب كل مايمكن اجتنابه من المنازعات ولفض كل الدعاوى والشكاوى الصغيرة التى نتجت عن احتلال بريطانيا العظمى لمصر ـ هذا كله مهد طريق الاتفاق وسهل الامر على المتفاوضين فيه

(الغرض الادارى)

وأتكلم الآن عن الغرض الادارى الذى وضـعته نصب عنى فأقول اني سمعت في هذه الايام لغطًا ولغواً كثيراً عن ان حكومـة مصر مستبدة ظالمة فلا يهمنى ان اطيـل فى الرد على مثل هذا الكلام بالتطويل بل أقول انى أفرغت جهدى مدة خـدمتى كلها بعصر فى بث روح الحرية فى نظام حكومة اقتضت الضرورة ان تكون حكومة «بيروقراطية» (٢) ولكني لم أدخر وسعا في الاطلاع على حقيقة الرأى العام سواء كان أوربيا أو محلياً واعطائه حقه من

---

(١) هى التى تنحصر في طبقات من الموظفين الذين لايسئلون عما يفعلون لغير رؤسائهم ولهم السلطة على الامة في كل امورها العمومية والخصوصية

(٢) هو كبير آلهة الفينيقيين وقد ذكر فى التوراة وكانت تقدم له الضحايا البشرية

الأعتبار والاهتمام وحسبي أن أترك لغيرى الحكم في مقدار نجاحى من هذا القبيل (اسمعوا)

﴿ الارتقاء الادبى والعقلى ﴾

ثم التفت الى أمر آخر وهو أنى أسمع قوما يقولون ان مصر ارتقت ارتقاء مادياً عجيبا في الاعوام الاخيرة ولكن لم يعمل فيها شئ لترقية أهلها أدبيا وعقليا . عجبا أيها السادة كيف يقال ان مصر لم ترتق أدبيا ؟ هل الحكم فيها اليوم للكرباج وحده كما كان في الايام الغابرة ؟ هل السخرة (العونة) باقية فيها ولم تطو الايام عليها ؟ هل لعنة الرق لاتزال حالة عليها ولم تزل عنها ؟ أليس كل شخص فيها من الامير الى الصعلوك الحقير سواء امام القانون ؟ ألم ينشط الناس فيها الى السعى والكسب ؟ أليس أصغر الناس فيها يجنون اليوم ثمار سعيهم و يتمتعون بما يحصلونه بعرق جبينهم؟ أليس من الحقائق المقررة ان العدالة لاتشرى وتباع اليوم وان كل انسان حر — بل ربما ظن قوم أنه حر أكثر مما يجب أن يكون — في المجاهرة بآرائه والتعبير عما في ضميره . وان سلطان « البخشيش » قد ثل عرشه وعزل عن مقاماته العليا في الحكومة ولم يبق له أثر الا في أخرياتها وضواحيها وان ماء النيل الذى يحيي الاراضى و يأتيها بالخصب يوزع على الامير الخطير والفلاح الفقير بالقسط والعدل وان المرضى يمرضون و يعالجون الآن فى مستشفيات مستكملة العدد ووسائط الراحة . وان المجرمين والمجانين لا يعاملون الآن معاملة الوحوش الضارية حتى الحيوان الاعجم لم يفت الرفق به عناية المصلحين . وان اشتراك الحكام والمحكومين في المصالح أصبح أمرا مقررا عند الفريقين قولا وفعلا . وان كل عمل تعمله الادارة وان كان خطأ — اذ العصمة لله وحده — تكون آثار حسن القصد بادية عليه و رغبة الحكومة في خير الاهالى ظاهرة منه وان الاموال التى تؤخذ من جيوب الذين يدفعون الضرائب والتى قلت كثيرا عما كانت عليه تصرف الآن فى الوجوه النافعة للبلاد بعد ما كان معظمها يصرف على بناء قصور لا منفعة لها ونحو ذلك من الامور التى لم تكن تهم السكان بوجه من الوجوه فان كانت هذه الامور كلها وكان غيرها مما يمكنني ان أذكر منه كثيرا لاتعد ترقية أدبية فالحق يقال انى لا أعلم بعد ذلك ما المراد من قولهم آداب وأدبيات (تصفيق طويل وهتاف شديد)

(تعليم البنات)

ولكن يقول قوم ان عقول المصريين وآدابهم لم ترتق . فأنكر هذا القول أيضا انكارا باتا

انظروا الى تعليم البنات فهل يظن عاقل انه يمكن لهذه البلاد أن تتشرب روح التمدن الحقيقي مادام مقام المرأة غير متغير ثميها ان كان أحد يظن ذلك فانى أخالفه في ظنه كل المخالفة . ومع ذلك فانه منذ بضع سنين ــ والعهد غير بعيد ــ لم يكن أحد يهتم بهذه المسألة غير صديقى سعادة يعقوب باشا ارتين وعزتلو قاسم بك أمين وآخرين قليلين وأما بقية الاهالى فلم يكونوا يبالون بذلك بل أنهم كانوا ضده فانظروا التغيير الذى حصل الآن لم يبق عند الحكومة المصرية مدارس تسع كل البنات اللواتى يروم والدوهن تعليمهن (اسمعوا واسمعوا)

(التعليم الابتدائى)

وانظروا أيضا الى التعليم الابتدائى فان النظام الذى كان متبعا قبل الاحتلال البريطانى لم يكن يصلح لشيء ثم تغير ذلك أيضا تغيرا عظيما لان الكتاتيب تنشأ في كل جهة من جهات القطر بعناية كثيرين من أعيان البلاد المستنيرين . وقد ابتدأت حركة أخرى تستحق الذكر لتعليم الصنائع للاهلين

(التعليم العالى وسمو الامير)

أما تعليم العلوم العالية وأعنى بها الحقوق والطب والهندسة وماشا كل فالتقدم فيها كلها مستمر مطرد منذ أعوام

نعم انه لو تيسر للحكومة المال الوافر منذ عشرين سنة لكان قد تم أكثر مما تم الآن كثيرا ولكن عقدة القضية المصرية أن المال الذى كان للحكومة سبيل اليه لم يكن وافراً بل لم يكد يكون كافيا مدة أعوام كثيرة لسد حاجاتها الضرورية

على انى لا أنكر أن البلاد لاتزال مفتقرة الى تقدم كثير أدبيا وعقليا وأنا واثق ان المعارف ستتقدم وترتقي سريعا على يد ناظر المعارف الحالى وجناب المستردنلوب مستشاره

(تصفيق) لاسيما وانه قد نزل بالامس الى الميدان حليف كفوءعالى الشان فاني قرأت منذ برهة يسيرة حديثا جرى لسمو الخديو مع مكاتب احدى الجرائد الفرنسوية . وقد قال سموه فيه « ان الهم الدولى بأمر الدين المصرى قد مضى وانتهى. وأقول فى سياق الكلام ان هذا القول مطابق للواقع الآن ولكنى واثق انه لو كانت الحكومة تنفذ كل مشروع من مشروعات الاصلاح الغربية التى تكاثر سمعنا لها في هذه الايام لكان الهم الدولى بمالية مصر لايلبث أن يعود ويحيا في الحال (ضحك) ولكنى لاأطيل الكلام من هذا القبيل

ثم قال سموه « وقد حان لنا أن نبذل جهدنا ليس فى خير الاهالى المادى فقط بل في سد حاجاتهم العقلية والادبية أيضا وأنا لا يهمنى أمر أكثر مما يهمنى هذا الامر » فأرحب باقوال سموه هذه من صميم فؤادى وأقول ان سموه خصوصا يقدر أن يرقى شعبه كثيرا من الجهة الادبية فهو قادر على ابطال فضائح ديوان الاوقاف وتطهيره من الادران المفسدة للآداب والاخلاق فى هذه البلاد وقادر أن يظهر لاهل دينه انه يمكن اصلاح المحاكم الشرعية من غير مس لاصول الديانة الاسلامية .وقادر على احباط أعمال أولئك المتزلفين لقضاء مآربهم الخصوصية الذين يشيرون ولا يتحملون مسؤلية بل يتألبون حول كل معية شرقية ويكون نفوذهم كله شرا ووبالا على الآداب العمومية . وقادر على استعمال نفوذه وهيبته لشد ازر المصلحين الحقيقيين الذين يريدون الخير للبلاد قلبا وقالبا وتنشيطهم فى سعيهم فان كان سموه يفعل هذه الاشياء كما هو مأمولى نال الشكر وعظيم الاحترام من كل طبقة من طبقات الامة(تصفيق طويل)

(دوام نظام الاحكام الحالى)

أخاف ان اكون قد اتعبتكم أيها السادة بطول الكلام ولكن كل ماقلته كان عن الماضي فاذا تكرمتم على بالاصغاء فانى أقول شيئا عن المستقبل

ماهى حقائق الحالة المصرية الآن . أولاها فى أن الاحتلال البريطانى يدوم الى ماشاء الله وقد قالت لنا حكومة جلالة الملك ذلك رسميا . وثانيتها هى أنه مادام الاحتلال باقيا فالحكومة البريطانية تكون بالضرورة مسؤلة عن الخطة التى تجري عليها الادارة المصرية لاتفصيلا بل اجمالا . ولا يكن عند أحد أقل ريب فى هذه الحقيقة الثانية . والنتيجة التى استنتجها من هاتين المقدمتين هى ان نظام الحكومة الحالى دائم رغما عما يعتريه من العيوب

والشواذ الكثيرة التى لايعترف بها أحد أكثر منى وأظن انه ليس فى الناس من هو أقدر على ضمان الدوام لهذا النظام من جناب السر الدن غورست خلفى المقتدر البارع (تصفيق طويل)

جناب السير الدن غورست

كلكم تعرفون مقدرة السر الدن غورست ومزاياه فلا حاجة بي الى اطالة الكلام في شرح أوصافه الجليلة وانما أقول اني سررت أعظم سرور بتعيينه فى مكانى لان الصداقة بينى و بينه عظيمة ولان ثقتى به تامة ثم انى أرى من أقوال الجرائد الاوربية والمحلية انها تشير على السر الدن غورست باتباع ماتسميه سياستى

الجري على سياستى

فرأيت أن أوضح ماذا كانت « سياستى » هذه ويكفى لايضاحها كلمات قليلة وهى ان سياستى كانت قول الحق وأنا عالم أن السر الدن غورست يجرى على هذه السياسة ولا ريب عندى انه يجد في القيام بواجباته الشاقة من أبناء بلاده وغيرهم من التأييد الخالص الفعال ما كنت أنا أجده منهم دائما . ولا تنسوا أيها السادة أن مبدأ الاتحاد قوة يجب أن يتبع أتم اتباع في هذا القطر اذا أردنا أن نحصل على أتم النفع منه

ليس من المحتمل أيها السادة ان يكون لى دخل عظيم في السياسة فى المستقبل ولكنى لا أكف عن الاهتمام بأمور مصر علي قدر ماتسمح به قوتى وعافيتى . فأبذل كل مايمكننى بذله من نفوذى في ترقية هذه البلاد علي الخطة الموضوعة الآن لترقيتها ولا أمدح تغييرا فجائيا فيها ولا أشير بكل خروج عنيف عن المناهج الحالية الى منهاج جديد واذا اقتضي الامر فاني سأطلب وألح خصوصا بان هذه الحركة الكاذبة المفتعلة لانشاء مجالس نيابية سريعاً لاتعامل الا بقدر ماتستحق وان سألتموني أيها السادة عما تستحق قلت لكم انها لاتستحق شيئاً لأنها لاتعبر في الحقيقة عن رأي المتنورين من سكان القطر المصري أوروبيين كانوا أومصريين بل انه متى زال كل مايقال الآن من الهذيان والمبالغة كان الاختلاف في الرأى بينى و بين خصومى وخصوصاً الذين في بلاد الانكليز منهم اختلافا في الدرجة لافي المبدأ فهم يريدون أن يعدوا عدوا سريعاً جداً وأنا أرى أن الخبب أحسن سير يوافق مصلحة البلاد فان هذا السير هو الذى نفع معنا فى الماضي وهو الذي أشير بدوامه فلا يبطئ حتى

يصير مشينا ثقيلا ولا يسرع حتى يصير عدوا زميلا . لاقتناعى انه اذا أسرع كثيراخيف أن جواد مصر يكبو فيقع ويكسر ركبتيه (ضحك كثير)

(لماذا أرى هذه الآراء)

وأخبركم الآن أيها السادة لماذا أرى هذه الآراء وأذكرها الآن . لا أراها لان من ورائها مزايا سياسيةلوطنى ولا لانى أعتقد انجميع الاذكياء من الاوربيين والمصريين فى هذه البلاد يشاركوننى فيها . كلا بل لانى أؤمل ان ما أقوله لحضراتكم الآن يترجم الى لغة أهل البلاد ويبلغ مسامع الملايين الذين لايسمع لهم صوت ــ أولئك الفلاحين اللابسين الجلابيات الزرقاء الذين يتوقف تقدم البلاد في الثروة واليسر على تعبهم فأنا ــ الذى يعد نفسه دائماً صديقهم الحقيقي ــ أحذرهم من أن يغتروا ويضلوا بأقوال الذين يدعون كذبا بأنهم ينوبون عنهم وينطقون بلسانهم وينقلون عنهم بلا اذن ولا توكيل منهم آراء لايرونهـا بل لايفهمونها ولا يدركونها ويطابون أمورا سياسـية لو أجيبوا اليها حالا لعادت بالضرر على مصالح الناس عموما وعلى مصالح أفقر أهالى القطر خصوصا (اسمعوا . اسمعوا)

ولو كنت أتحول عن الدفاع عن هذا النظام الذى دام نحو ربع قرن الآن الى انتقاده لكان أول ما أنتقده فيه ان التقدم كان سريعاً جدا فيـه عوضاً عن أن يقال انه كان بطيئاً جـدا وانه لمزيد سرعته لم يتيسر بعد لعامـة الناس أن يقتبسوا ويألفوا الاصـلاحات التى تمت فيه

نصيحة أخرى

بقى لى نصيحة أخرى أحب أن أقولها قبل ان أجلس في مكاني وهى ان قولهم «الاتحاد قوة» لايصدق على الذين هم في خدمة الحـكومة فقط بل على جميع الذين يهمهم ادخال التمدن الحقيقى الى هذه البلاد. فالواجب عليهم أن يتحدوا معاً ولا أعنى بذلك ان الانكليز والفرنسويين والالمان وسائر الاوربيين فقط يطرحون عنهم ما بينهم من المناظرة والمنافسة و يتحدون معاً فى مصلحة واحدة بل ان جميع الذين يريدون أن تكون الحكومة حكومة عقـل وأن يكون تقدم البلاد مستمرا دائمـا يتحدون جميعهم معا سواء كانوا مسلمين أو مسيحيين أوروبيين

او أفريقيين أو اسويين، ويقاومون القوات الجاهدة في سبيل التأخر والتقهقر حقيقة سواء كان جهادها عن جهل أو عن عمد وقصد (اسمعوا . وتصفيق)

وأشكركم أيها السادة في الختام على اصغائكم الى بالصبر وطول الاناة هذه المدة التى قلت فيها كل ما أردت قوله

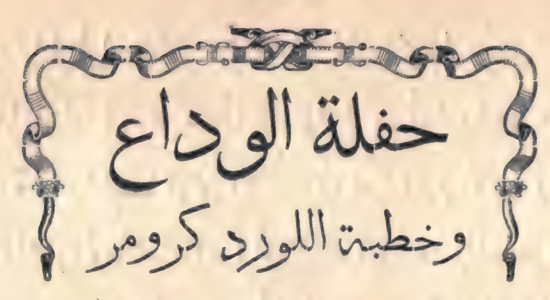
ولا شك عندى ان الصعوبات لاتزال كثيرة فى سبيل المصلح المصرى وخصوصاً السر الذن غورست ولكن آخر كلمة أقولها له ولكم كلكم هى كلمة كان عباد الآلهة ايزيس في هذه البلاد كثيرا ماينقشونها على قبورهم بلغة القوم الذين هم أصل التمدن الاوربي والذين استوطن أناس كثيرون من ذريتهم هذه البلاد لخيرها والذين أعد منهم أصدقاء كثيرين لى - وأعنى بها لغة اليونان . ومعنى تلك اللفظة اليونانية تشجعوا (تصفيق)

فأودعكم أيها السادة وأنا واثق ثقة تامة بمستقبل هذه البلاد التى كانت موطنا لى سنين هذا عددها والتى تأصلت جراثيم التمدن الحقيقى فيها على ما أرجو حتى صار يعسر استئصالها . أودعكم على الكره منى وأستودعكم الله (تصفيق طويل وهتاف شديد متكرر)

ثم صدحت الموسيقى بالسلام الخديوى وكانت الساعه ٧ والدقيقة ١٠ مساء

(المؤيد في ٢٢ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ - ٥ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٦)





حفلة الوداع
وخطبة اللورد كرومر

تقفون والفلك المحرك دائر * وتقدرون فتضحك الاقدار

وقف الخطباء مساء السبت الماضى موقف الممثلين فى دار التمثيل الكبرى (الاوبرة الخديوية) يحكمون على الماضى والمستقبل حكم الاقدار في الكائنات . ويبرمون وينقضون ويرفعون ويخفضون والناس يسمعون مختارين أومكرهين لان فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا مايكرهون كما قالوا مايحبون

قلنا انهم وقفوا موقف الممثلين لانهم كذلك فى حقيقة الواقع وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذى كان آخر الخطباء في الحفلة كلاما وأشدهم ايلاماً وأكثرهم آلاماً

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول

« ما في وقوفك ساعة من باس »

مثلها فى مكان هو أليق ما كان عظة لقائل ومظهراً لسلطان راحل ومجد زائل وأصدق ماضرب له من الامثال « لكل مقام مقال »

وقبل أن نذكر شيأ عن الخطباء وخطبهم يجدر بنا أن نذكر شيأ عن هذا الاسلوب الذى اختير من أساليب الوداع ولماذا فضلت حفلة الاوبرة على المأدبة

التى كان يراد عملها في أول الامر ؟؟ .فضلت لان القوم لم يريدوا مظهر اكرام الرجل الراحل اكراما معتاداً فى مثل هذا المقام ولكنهم أرادوا مظاهرة سياسية أساسها سلطة الحكومة وأساطينها قوى الاحتلال بعيدة عن الامة والامة بعيدة عنها . وقد بالغوا فيها ماشاؤا وما استطاعوا أن يبالغوا في هذه المظاهرة بقصد أن يذهب من نفوس المصريين كل أثر للظن بأن اللورد مستقيل لاسباب سياسية وحتى يستقر فيها أن اعتلال صحته هو الباعث الاول بل والآخر على استقالته من وظيفته ولو أنهم أحسنوا الصنيع معه لتركوا هذه المظاهرات التي حملت كل النـاس بكل ماجرى فيها على فهم ان الرجل راحل طبق المثل « مكره أخاك بطل »

وفوق هـذا أنهم لسوء الحظ لم ينجحوا في القيام بالمظاهرة السياسية كما أرادوا منها بل فشـلوا في تكوينها من الامـة وقد حاولوا ذلك بواسطة سلطة الحكومة المخلوطة بقوى الاحتلال وانعكست الآية عليهم فلم يكن من الوطنيين في هذه المظاهرة سوى نفر قليل يعرفون بسيماهم ويكادون يعدون على أصابع اليدين والرجلين وسوى رجال الحكومة الذين هم صنائع اللورد الذين يمن هو عليهم بوجودهم فى هيكلها . ولم يكن من الاوربيين سوى بعض الرجال الرسميين ونفر ممن حسنت حالهم على يد اللورد بمناسبات شتى أو ممن جذبتهم جاذبية حب الظهور فوق المراسح والحشر فى غمرات المجامع من النقيض الى النقيض وما أكثر المتحذلقين لذلك بين الناس .

***

كان الداعى لهـذا الاحتفال باسمه من أول الامر صاحب العطوفة رئيس النظار وهذا نص الدعوة التى وزعت على كبراء السراة والاعيان ليكونوا من

أعضاء اللجنة العاملة . ونحن نذكر هنا نص ورقة الدعوة الاولى بعنوانها لان الكتاب يقرأ من عنوانه . وهو بحروفه

« احتشاد للاحتفال بجناب اللورد كرومر »

جار تشكيل لجنة تحت رئاسة صاحب العطوفة مصطفى باشا فهمى للقيام بمظاهرة نحو جناب اللورد كرومر بمناسبة قرب رحيله من القطر المصرى وللاقرار فيما بعد على الطريقة المؤدية لتخليد أثر جنابه وقد تقرر القاء خطبة تتضمن تقديم الشكر لجنابه في بهو تياترو الاوبرة الخديوية فى يوم السبت ٤ مايو القادم وقد كلفتنى اللجنة بأن أرجوكم التكرم بافادتى عما اذا كنتم تقبلون اضافة اسمكم الكريم الى الاسماء المدرجة بالقائمة المرفقة بهذا

سكرتير اللجنة

في ٢٥ ابريل سنة ٩٠٧   العنوان المستر يورك بنظارة المالية

يورك

بعث بهذه الدعوة الى المئات من كبار الوطنيين والاجانب ولم يترك المدعوون أحرارا يجيبون أو لا يجيبون بمحض ارادتهم واختيارهم بل كان الكثيرون من رجال الحكومة وأصحاب السلطة العالية فيها يذهبون بأنفسهم لبعض المدعوين أو يرسلون رسلهم اليهم يلحون عليهم كل الالحاح بالقبول . ومع كل مابذلت الحكومة بعناصرها المختلفة لم يشترك فى لجنة التأسيس من سراة الوطنيين غير الموظفين ونحو بضعة عشر شخصاً بعضهم ممن عرفوا اللورد شخصيا ودامت بينهم وبينه صلة التزاور لتكافؤ فى المقام الذاتى وبعضهم ممن غمرهم اللورد بفضله يدا بيد وبعضهم لا في العير ولا في النفير ولكنهم ليعرفوا فى أمثال هذه المظاهرة على ولاء للمحتلين وأحدهم سئل كيف وجدت في اللجنة ولست على شاكلة أعضائها مكانة أو جاها فأجاب على ملأ من الناس « كنت على وشك أن أعزل من وظيفتى منذ أشهر فلم يحفظنى فيها سوى اشارة جاءت الى الحقانية من جانب اللورد فلماذا لا أعرف له هذا الجميل »

واذا كان مايبذل من الجهد والعناء فى سبيل الوصول الى الغرض المعيار الحقيقي للفوز أو الفشل فان مابذلته الحكومة وعناصرها المختلفة في سبيل جعل هذه المظاهرة السياسية ممثلة للامة المصرية بحذافيرها وعنوانا كاملا على قدر شكر الامة للرجل الراحل جاء دليلا على أن الفشل كان أعظم مايمكن أن يقدر لعمل العاملين . وعلى هذا القياس كان الفشل أيضا في الدعوة العمومية لحضور غير المشتركين في الاحتفال اياه فان بعض المديرين كانوا يسوقون الاعيان سوقا الى القاهرة ويصحبونهم بالرسل في مجيئهم حتى اذا جاؤا اليها أبى أكثرهم الخروج من الفنادق التى نزلوا بها ليلة الاحتفال

ولا تفسير لذلك الفشل العظيم وهذا الاباء الذى عم المدن والقرى الا أن اللورد ولو أنه أحسن كثيرا فى هذه البلاد فقد أساء كثيرا فيها وكانت سيئاته الكبرى فى أخريات أيامه فلم ينسها الناس لانه لم يترك في جعاب تقريره الاخير سهاما مؤذية الا سددها نحو مصر والمصريين وفى مبادئهم وعقائدهم والذكرى تغلب بالسيئ من الاقوال والعبرة بالخواتيم من الاعمال

***

أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لاكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ولكنه انقلب بما جرى فيه مظهرا عدائياً من اللورد لم ير الراؤون ولم يرو الراوون مثله فى مقام وداع كهذا المقام

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الاول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معا يقدم عليه سواه فى الكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيبا من كلامه في احتفال

كهذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة فى موقفه السواد الاعظم من الامة المصرية والسواد الاعظم يخالفه فى الرأى والقول . ودعنا من كون الكونت دي سريون يتكلم عن فئة من الاوروبيين بما تشعر من حسنات الاحتلال عليها أو هو أراد انجاح السفارة الانكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ماحالت هذه الحكومة دون انعام ملك اسبانيا وكل انعام تلاه من الدول الاجنبية عليه وهو ينتظر اللاجيون دي نور بصبر نافد

دعنا من كل هذا وانظر الى خطبة اللورد السياسية التى جعلها بمثابة وصيته الاخيرة وخاتمة اعماله في مصر

فبينما كانت الامة المصرية واقفة موقف الآمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الاسلامية بما قضى عليها من الجمود الابدى ونحو الامة المصرية بما وصفها به من العقم السرمدي . بينما هى ترجو من جنابه أن يغتنم هذه الفرصة السانحة ليأسو الجراح التي جرحها ويضمد الكلوم التي فتحها فى جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات وجامعتها كشكولا بين الجامعات . وبينما كان سمو أمير البلاد يتعطف و يتلطف ويبالغ في اكرام الراحل عند رحيله متناسيا الحزازات السياسية التى طالما كان اللورد مهاجما فيها غير عادل ولا متلطف

بينما كان كل هذا اذا ببركان « البيروقراطية » التى نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز من تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجرت نيرانه وقذف بلظاه على الاحياء والأموات

وقف اللورد خطيبا وهو يدافع كيد السقام ويجاذب داعى الحمام فجال فى خاطره انه مفارق قصرا تجري من تحته الانهار وملكا خضع له فيه الليل

والنهار وتارك خصوما قد يتوهمون أنهم نازلوه فغلبوه أو يتوهم هو أنه حالمهم فأغضبوه

وقف اللورد وله نفسان نفس نزاعة الى حب البقاء وأخرى تقول كيف البقاء بعد الاستعفاء

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم وأعداءه الكثيرين كما يتوهم فسر وساء وترخص وتشدد وعدد وندد ووعد وتوعد وأرغى وأزبد وحذر وأنذر وحكم وقدر

ربما أخرج الحزين جوى الحز ن الى غير لائق بالسداد
مثلما فاتت الصلاة سليما ن فأنحى على رقاب الجياد

وقف اللورد خطيبا راحلا عن بلاد أقام فيها أكثر سني حياته فظن الناس أنه محسن وداعه لما ذاكر جميل أهليها معه فى ماضية الطويل ليذكروا جميلهم معه بعد فراقه فاذا هو قد جمع في ساعة واحدة كل أغلاطه الماضية ومثل في هذه الساعة الزائلة كل مظاهر السلطة والاستبداد التى عرفت عنه وزاد عليها أضعاف أضعافها

وعجيب أن الانسان يقدر أن يسيء الى أمة بأسرها في ماضيها وحاضرها وأحيائها وأمواتها كما فعل جناب اللورد في ساعة وداعه . فانه فى هذه الساعة بل في نصف ساعة بالتحديد طعن على أمير البلاد طعنا جارحا لعواطف الامة كما طعن على بصائرها فقال انهم « عميان » ومجد سكرتيره المستر فندلى الذى نقل من مصر بعد ما أساء للامة في حادثة دنشواى المحزنة أعظم اساءة مشيرا الى أنه عمل فيها أنفع عمل مع أنه هو الذي رمى الامة بالتعصب ورمى جرائدها بارتكاب الرشوة كذبا

طعن اللورد في نصف ساعة على الاحياء والاموات فرشق المرحوم اسماعيل باشا وهو في قبره بسهام جارحة كان الامير حسين باشا نجله الا كبر فى غنى عن سماعها لو لم يتفضل بحضور الاحتفال بوداعه . هذا الامير الجليل الذي والى جناب اللورد بالصداقة زمنا طويلا وخصه باحترامه دائما وكان له في عهده أعظم أثر في خدمة البلاد معه خدمة حقيقية بأخذه الجمعية الزراعية الخديوية تحت رئاسته وبذل عنايته الجليلة في ترقية شؤونها بنفسه وماله ومع ذلك لم ير اللورد انه خليق بكلمة ثناء يوجهها اليه في جنب ما وجهه من عبارات الثناء لغيره من الاحياء والاموات

لم يكتف اللورد فى أن يجبه الامراء من العائلة الخديوية جبها في « اسماعيل » بل قال عن المرحوم « توفيق » قولا أشبه بالمديح فى أسلوبه وهو عين الهجاء . قال عنه « انه لم يكن يشترك كثيرا فى أمور اصلاح مصر » وأثنى عليه بأنه كان بذلك يعرف قدره ومركزه تعريضا بالجناب العالى الخديوى الذى لم يكفه منه هذا التعريض بل طعن عليه بعد ذلك طعنا صريحا وكاد يسبه سبا

خص اللورد أشخاصا معدودين بثنائه فذكر فى أولهم الطيب الذكر نوبار باشا ولكنه لم يذكر أثرا طيبا له يستحق به هذا الثناء سوى أنه كان المخطط الاول لخطة تعديل نظام الامتيازات الاجنبية . ولكن الخطيب لو أنصف الرجل فى قبره لقال ان مشروعه فى تعديل الامتيازات كان مخالفاً لهذا المشروع الجديد لان نوبار باشا انما كان يطلب تعديلها باعطاء المحاكم المختلطة سلطة الحكم في الجنايات والجنح كما طلبت الجمعية العمومية منذ سنين وكان أشد الناس اعتراضا له في طريق نجاح هذا المشروع اللورد كرومر الذى يزعم اليوم أنه متمم عمله العظيم

ذكر بعد ذلك رياض باشا وأطرى شجاعته التى اشتهر بها في زمن اسماعيل

باشا قائلا - انه علق الجرس بعنق الهر - ومغزى هذا المثل أنه لم يكن يبالى اذذاك أن يصيبه مكروه من ذلك المستبد الذى كانت تعنو لهيبته الوجوه . ولكن اللورد لم يقل ان رياض باشا لما أراد في زمنه هو أن يعلق الجرس فى عنق الهر قطعت هذه العنق وحاف اللورد أن لا يعود الى خدمة الحكومة مادام هو فى البلاد وزاده عقوبة أن رفت ابنه من وكالة الداخلية فى اليوم التالى من استقالة أبيه من الوزارة فكان المستبد اسماعيل أخف وطأة على رياض باشا من المستبد كرومر

ذكر بعد رياض باشا مصطفى فهمى باشا صديق اللورد العزيز الذى كان ينتظر الناس أن يقول عنه ماقال وأضعافه ذلك الصديق العزيز الذي حلف له يوم عاد الى رئاسة النظار في سنة ١٨٩٥ أن يبقى فيها مادام حيا وما بقى اللورد في مصر وقد بر في يمينه كما بر في يمينه عن رياض باشا . ولكن الناس لا يحكمون لمصطفى باشا حكم اللورد له في كل ماقاله عنه بل يقولون عنه انه أنكر نفسه وعرف اللورد فاستحق أن يكون سامى المقام فى عينيه لا في عينى الامة المصرية

ذكر بعده بطرس باشا فمدحه بسعة الحيلة العقلية فى حل المشكلات وهى كلمة صغيرة جداً فى جنب ما أدى من الخدم الجليلة للبلاد في حل المشكلات بين اللورد والجناب العالى من جهة وبينه وبين قناصل الدول من جهة أخرى

ثم ذكر من بعده سعد باشا زغلول - بالمدح والاطراء الكثير ويسرنا أن مدة تجربته كانت قصيرة عند جناب اللورد فصرنا نؤمل أن يدخل في مناصب الحكومة العليا كثيرون من أمثاله القادرين على العمل بعد ما كان اللورد يتهددنا بأنه ان لم يؤد مدة التجربة بنجاح يضطر الى أن يسلم كل أعمال الحكومة العليا للانكليز ويقول على المصريين فيها السلام

على أن اللورد بعد أن ذكر هؤلاء الثلاثة من النظار أعرض عن ذكر بقية

الاربعة الباقين فلم يشر اليهم بأقل اشارة كأنهم ليسوا نظاراً فى الحكومة ولا عمل لهم مطلقا فيها فتساءل الناس . أليس هؤلاء من صنائع اللورد أيضا . أولم يكونوا مثل مصطفى فهمى باشا يخدمون بلادهم بالسكوت عنده

أو كما قال هو « بالسكينة والهدو والابتعاد عن التعرض للغير والدخول فيما لا يعنى » أوهم كانوا على غير هذه الخطة فلم يكونوا محسنين عمـلا . ان كان الامر كذلك فلماذا هو أبقاهم في مناصبهم مدة اثنتى عشرة سنة لا يعملون عملا يليق أن يذكروا به في مثل هذه الحفلة . تساءل الناس كثيرا عن اغضاء اللورد عن ذكرهم ونحن مثلهم لا نعرف له سببا ولعل حضرات النظار المسكوت عنهم يعرفون هذا السبب

ولقد ذهب بعضهم بهذا الصنيع من اللورد الى أكثر مما يظن حتى قالت « الجريدة » فى العدد الذي نشرت فيه خطبة اللورد تحت عنوان (تغيير في الوزارة) ما يأتى — ليس من البعيد أن يحصل تغيير فى رجال الوزارة المصرية يكون من شأنه اسناد بعض النظارات الى رجال مسئولين — كأنما في بعض النظارات اليوم رجال من الذاهلين أو المتوهـين . ونحن نعرف أنه لا أصل لهـذا الخبر الآن ولكن الذى أوجد هذا القيل والقال سكوت اللورد عن بعض النظار في معرض الحصر والتعداد سكوتا مهينا أو قريبا من ذلك

وبعـد ماقال عن بعض كبار الانكليز مـدحا وثناء واعجابا واطراء عاد الى المصريين فذكرهم بمنن الاحتلال عليهم وقال انى لا أصدق مايقال عنهم من انهم ناكرو الجميل كافرو النعم ولكن اذا صح مايقال عنهم من هذا القبيل فهو ينتظر شكران نعم الاحتلال من أولاد هؤلاء العميان

وبعد أن رمى المصريين بهذا السهم الجارح انتقل الى بيان (الغرض السياسى)

الذي زعم انه كان نصب عينيه منذ قلد وظيفته فى مصر وهو أن يسعى الى اعادة الاتفاق الفرنساوى الانكليزى الى ما كان عليه والذى كان يوصى به على الدوام ذلك السياسى الطائر الصيت (غامبتا) قائلا (اياكم وأن تقطعوا حبل المحالفة الانكليزية) كذلك هو يوصى قومه اليوم (اياكم وأن تقطعوا حبل الاتفاق الفرنساوى) كأنما اللورد الذى ينسى التاريخ يظن أن جميع الناس ينسون التاريخ مثله فينسون تلك الخشونة السياسية أو الجلافة العسكرية التى كان يقابل السير افلن بارنج بها خصومه الفرنساويين في مصر على الدوام . وأنه كان يحارب النفوذ الفرنساوى في كل مصلحة وفي كل طريق . وأنه هو الذى أنحى على العلوم والآداب واللغة الفرنساوية فى مدارس الحكومة المصرية . وكانت نبراساً للناشئين وأنه هو الذى أقفل جريدتى الاهرام والبسفور لكونهما فرنساويتين وما عادتا الى الظهور الا بأمر من لندرة وأنه وأنه الخ لا حبا في مصلحة مصر ولكن ليحل محل كل قدم فرنساوية قدما انكليزية وكل شىء فرنساوى مثله انكليزياً لتدخل سياسة الاحتلال على المصريين من كل باب.

يوهم اللورد كرومر أنه كان من أصحاب السعى والعمل لذلك الاتفاق الفرنساوى الانكليزى لمصلحة فرنسا وانكلترا معاً فى مصر مع أنه هو القائم بعد عقد هذا الاتفاق بمشروع الغاء الامتيازات الاجنبية الذى لا معنى له الا أن تصير هذه الامتيازات واسطة من جملة وسائط تقرير السيادة الانكليزية المطلقة على مصر وجميع سكانها . وان هذه الكلمات الحلوة التى يفوه بها تزلفا واسترضاء واستمالة للفرنساويين لا تستر ما وراءها من المقاصد السياسية الكبرى التى هى ضد مصلحة فرنسا كما هى ضد مصلحة بقية الدول ومصر معا

* * *

أراد اللورد بعد كل ما تقدم أن يعدد منته على مصر والمصريين من الوجهتين المادية والادبيـة فذكر التقدم المالى اجمالا لعامه أن الناس مجمعون على الاعتراف بفضله فى بابه ثم ذكر التقـدم الادبى تفصيلا فأخذ يعـدد للناس فصوله قائلا :- هل السخرة باقية فى مصر . هل لعنة الرق لا تزال حالة عليها . أليس كل شخص فيها من الامير الى الصعلوك الحقير أمام القانون سواء . ألم ينشط الناس الى العمل والكسب . أليس صغار الناس يجنون اليوم ثمار كدهم الخ الخ .

وقد فات اللورد أن حكومة مصر كانت قد قررت قرارها في أمر العونة قبـل الاحتلال وكانت سائرة في طريق التنفيذ . وأن أول معاهدة للرق كانت بينها وبين انكلترا قبـل عهد اللورد بسنين . وأن النظامات القانونية التى سوت بين الامير والحقير فى النهاية لم يضع أساسها في مصر اللورد ولا قومه . وأن الناس نشطوا الى الكسب والعمل وأخذوا يجنون ثمار أعمالهم من يوم بدىء برفع أثقال الضرائب الشاذة عن كواهلهم وأن ما رفع من هذه الاثقال فى سنتى ٨٠ و ٨١ قد بلغ أكثر من مليونى جنيه مع أن ما رفع من هذه الاثقال فى زمن الاحتلال كله لم يزد عن ٦٠٠ ألف جنيه سـنويا . وأن كل شىء كان سائرا بطبيعته الى التحسين والكمال بحيث لو لم يكن في البلاد احتلال لما وقفنا عند ذلك الحال الذى تركنا عليه الخديو الاسبق . وهب أن ما وصلنا اليه في عهد ٢٥ سنة كنا مدركيه فى مدى ثلاثين مثلا فالتقدم حاصل بطبيعة الوجود وسنة الارتقاء في الاعمـال . ولكن الارتقاء الادبى لم يكن يبقى واقفا عند الحد السلبى الذى من علينا به اللورد كرومر فان هذه الوجوه التى ذكرها سلبية أى من لوازم رفع أشياء نشأ عن رفعها عدم وجود لوازم ماقبلها لا ايجابيـة كبث أنوار العـلوم فى البلاد وكتأهيـل المصريين لان يحكموا أنفسهم بأنفسهم وهما العاملان القويان في ترقية الامم من الوجهة الادبية .

فأما مايوجد في البلاد الآن من هذين النوعين فمن عمل الشعب لامن عمل الاحتلال ولا من تشجيعه فالاندفاع في طريق التعلم وتحصيل المعارف للذكور والاناث ليس من عمل الاحتلال الذى لواستطاع أن يوقف هذا التيار القوى المتدفق فى وادى النيل من رغبات أهله افعل . وأن الميل الشديد الى العمل والكسب والاشتغال بالمهن الحرة وما أشبه ذلك مما يعد من قبيل تأهيل المصريين للارتقاء الذاتى انما جاء كله من طبيعة قوة احتكاك الاقوام النازلة في البلاد وتشعب طرق العمل فيها لا بعمل الانكليز ولكن بواسطة قوة الامتيازات التى جعلت الاجانب من كل أمة فيها أسوة الانكليز في العمل والكسب ولواستطاع هؤلاء أن يقطعوا طريق الكسب على النزلاء سواهم ليحصروه في أنفسهم لما تأخروا طرفة عين

وهل ينسى أحد في البلاد خطة اللورد كرومر فى التعليم وسياسته العملية فى نظارة المعارف التى حصرها في أمرين . نشر التعليم الابتدائى البسيط بقدر الامكان. وقصر التعليم الوسط والعالى معا على غرض واحد هو أن يصنع من الناشئة المصرية القدر اللازم لوظائف الحكومة فقط

***

أراد اللورد بعد هذا كله أن يحيي الامة المصرية بكلمتين. احداهماموجهة لاميرها المعظم . والاخرى موجهة اليها بالذات ليدلها على مستقبلها
استطرد من ذكر الارتقاء الادبى الى التعليم العالى الى ذكر الجناب العالى الخديوى فبعد أن أشار الى كل الذين شاركوه فى العمل وساعدوه على ترقية البلاد من الاحياء والاموات وقد انتظر سامعوه أن يأتى على ذكر أمير البلاد بما يليق له من التجلة والاعظام وبالقسط الذى يناسبه من الثناء والاطراء على ماجرى بواسطته

وعلى يديه من الاعمال التى تعزى الى عهد الاحتلال وكلها بأوامر من الجناب العالى وبمشاركة له محسوسة في العمل . بينما كان الناس ينتظرون أقواله عن سموه اذا هو قد خرج من ذكر نعم الاحتلال على مصر الى التهكم على أمير البلاد وتقريعه بعبارة مملوءة بالاحقاد وخالية من كل ذوق وأدب

ذكره بالحديث الذى نشرته جريدة الطان فى الشهر الماضى عن سموه وكأنه لم يعرف للجناب العالى عملا في مصر ولا شأنا يعرف به سوى ذلك الحديث

ذكر اللورد نظارة المعارف وأمله العظيم في ارتقائها وتقدمها على يدى ناظرها الجديد ومستشارها العنيد ثم قال « لا سيما وقد نزل بالامس الى الميدان حليف كفؤ عالى الشان فانى قرأت منذ برهة يسيرة حديثا جرى لسمو الخديو مع مكاتب احدى الجرائد الفرنساوية » ثم أشار الى بعض ما تضمنه ذلك الحديث وخرج منه الى ذلك التهكم المسيء بل الى ذلك الطعن الصريح الذي كاد يكون سبابا .

مضى على الجناب العالى الخديوى جالسا على عرش أجداده العظام خمسة عشر عاما وكسر يرأس مجلس النظار ويناقش اللورد ويجادله فى المشروعات ولا يظهر منها الا ما يوافق عليه وكم له من وقفة حالت دون أخطار كبار . مضى عليه ذلك الامد الطويل وهو يصدر الاوامر العلية على كل نظامات القضاء والادارة والمالية متوجا عمل المصلحين الذين يستمدون السلطة الشرعيـة منه بامضائه الشريف . مضى عليه ذلك العهد المديد وهو يعلم الناس كيف يتقدمون شأنا ويسبقون شأوا في الاعمال الزراعية والمشروعات الاقتصادية الكبرى باحياء الموات من الاراضى الواسـعة واستثمارها حتى أنه أحيا جانباً من الصحراء تؤسس اليوم فيها حكومة محلية شاسعة الاطراف وسيكون لعمله العظيم في استعمار ما بين مريوط ومرسى مطروح أعظم ذكري تاريخية . الخ الخ . ولكن جناب اللورد لم يكتشف وجود

الجناب العالى فى مصر الا من ذلك الحديث الذي اطلع عليه صدفة فى بعض الصحف الفرنساوية وما كاد يذكر اسمه الكريم بعد هذا الاكتشاف حتى عيره بالفضائح التى تجرى بين يديه في ديوان الاوقاف قائلا انسموه قادر على أن يبطل هذه الفضائح في الديوان وان يطهره من الادران المفسدة للآداب والاخلاق

وان الذي يسمع هذا يخيل له أمران . الاول أن ديوان الاوقاف ليس الا قارورة أقذار تزكم بروائحها المنتنة خياشيم المارة عليه ومصدر فضائح لاتقف عند حد الرشوة المفسدة للاخلاق بل هناك أدران تفسد الآداب العمومية أيضا . ولا ندرى ما الذي كان يمكن أن يعبر به اللورد لوحاول أن يصف مواخير الفسق والفجور بأ كثر مما عبر به عن ديوان الاوقاف . والثانى أن الذي يسمع قوله هذا يتوهم أن بين رجال الاحتلال وأعمالهم وبين ديوان الاوقاف ألف حاجز حصين مانعة لهم من الاطلاع على ما يجرى في ذلك الديوان والاقتراب منه لاصلاحه ولكن هل استطاع اللورد أن يذكر لنا ماهى تلك الفضائح والادران المفسدة للاخلاق والآداب العمومية في ديوان الاوقاف العمومية بأ كثر مما يشاع عن نظارة الاشغال والصحة العمومية مثلا . أليس كل مايقال عن ديوان الاوقاف أن فيه بعض موظفين يتهمون بالرشوة ؛ أليس هذا القول نفسه هو الذي قيل ويقال بأ كثر منه عن تينك المصلحتين

ألم يشع قبل عشر سنوات أن أموال الاوقاف تصرف في سبيل الرسالات السياسية في أوروبا وتعطى منها المرتبات لمصطفى كامل وأضرابه . وقد اتخذ اللورد تلك الاشاعات ذريعة الى التداخل في شؤن الاوقاف

ألم يتقرر لنظارة المالية من سنة ١٨٩٥ أن تشرف بسبب تلك الاشاعات على ديوان الاوقاف وتراقب حسابات دخله وخرجه

ألم يمعن النظر ويدقق البحث موظفو نظارة المالية في دفاتر الاوقاف ويقلبوا أوراقها ظهراً لبطن حتى يروا مسوغا لتلك الاشاعات الباطلة فلم يجدوا شيأ . ألم تضع نظارة المالية طريقة لضبط حسابات الديوان موردا ومصرفا قد جرى عليها العمل بعد ذلك الى الآن تحت مراقبة النظارة واشرافها . ألم تنسخ الطرق القديمة لحسابات الاوقاف المختلفة وتستبدل بطرق أخرى من عمل نظارة المالية قد وحدتها بقدر مايجيز الشرع الشريف توحيدها

فاذا كان الامر كذلك فى الديوان فما هى اذن تلك الفضائح التى يلوكها اللورد بلسانه ويملأ بها ماضغيه

ألم يعن الجناب العالى الخديوي بانتخاب خير الرجال وأنزههم لتعيينهم مديرين للاوقاف العمومية تاركا لهم الحرية المطلقة في انتخاب العمال واختيارهم على طريقة انتخاب الاصلح فالاصلح من كل وجه

ألم يكن المدير السابق لعموم الاوقاف ذلك الرجل العامل النزيه عدلى باشا يكن وقد أصلح ما أراد وقدر عليه في طبقة العمال وانتخب المفتشين من المشهورين بالعفة والنزاهة

ألم يكن المدير الخلف لهذا الديوان ذلك العالم العامل النزيه المستقل حسين رشدى باشا الذى كانت تضرب بعدله وفضله الامثال فى القضاء

***

فكيف سوغ اللورد لنفسه وهو رجل شريف مؤدب أن يقول عن ديوان الاوقاف ما لا يقال أفظع منه عن مواخير الفسق وحانات الفجور لا لسبب غير كون الاوقاف مصلحة اسلامية صرفة

عير اللورد الجناب العالى الخديوى بأنه لم يعمل شيأ ما لاصلاح المحاكم

الشرعية كأنما هذه المحاكم قلم من أقلام الخاصة الخديوية مع أنها تابعة لنظارة الحقانية ولم يعهد أن الجناب العالى وقف في طريق اصلاح استطاعته وارادته الحكومة لهذه المحاكم . أليس أكبر اصلاح في هذا الباب يأتى من قبيل انتخاب الاشخاص الذين يتولون العمل والقضاء في المحاكم الشرعية ؟ . فهل الجناب العالى الخديوى هو الذى ينتخب القضاة والكتاب أم نظارة الحقانية ؟ هل الجناب العالى الخديوى هو واضع لائحة المحاكم الشرعية وتعليمات القضاة والعمال أم تلك النظارة ؟

هل الجناب العالى الخديوي هو الذي يضع درجات القضاة ويقرر مرتباتهم بمثل مايعطى صغار الحجاب في المحاكم الاخرى أم تلك النظارة الخاضعة لارادة المستشار الانكليزي ؟؟

ما للورد كرومر عند ماذكر الجناب الخديوي بلسانه عرته حمى الغضب وانتفضت أوداجه بالاحقاد فلفظ من فيه أقوالا لايحسن بمثله وخصوصا في مثل موقفه أن يقولها حتى دل الناس على مكنونات صدره من هذا الرحيل الذى هو فاعله بالرغم عنه لا بمطلق ارادته

ألم يكن عند اللورد أسلوب لتحية الامة في شخص أميرها المعظم ألطف من هذا الاسلوب في وداعه . وهل مثل هذه الكلمات التى لفظها فى آخر موقف له بمصر هى الوصية التى تركها للمصريين يعلمهم بها كيف يتأدبون فى مخاطبة أولياء الامور . وأى فرق بين ماقال اللورد عن الجناب العالى الخديوى وبين ما كان يكتب المقطم فى أسوأ مظاهر وقاحته عنه

لقد حيا اللورد الامة المصرية هذه التحية المؤلمة التى حصبها بها حصبا ثم حياها تحية أخرى موجهة لها بالذات ليدلها بها على مستقبلها فقال . أما الاحتلال

الانكليزى فباق في مصر الى الابد كانما اللورد غار من (الزرقاوي) وساءه ما أصاب فى تنجيمه عنه فبزه في نتيجته . أو كانما هو مصرف الاقدار فنطق بما قال واثقا من جبروته وقدرته . وقدغفل عن كون المقادير لا تلقى بأعنتها الى تلك التقارير فانها بيد الله القاهر فوق كل قاهر والقادر فوق عباده يصرفها كيف يشاء لا كما يشاء اللورد وغضبه وحقده .

توعد الامة ببقاء الاحتلال خالدا وقال ان بقاءه يستلزم ان تكون الكلمة العلياء له فى مصر فلا يظنن المصريون انهم محررون يوما من رق هذا الاحتلال ولا يرجون ان يحكموا انفسهم بأنفسهم فى حال من الاحوال . ثم انذرها بأنه واقف لها في انكلترا بالمرصاد يجاهدها ويجالدها فأين هذا! من دعواه أنه لم يستقل الا لأن وطأة المرض قد ثقلت عليه وان الاطباء مانعوه بتاتا من العمل حتي ينجو من مخالب الموت الذى يتهدده آنا فآنا . والقارىء لما كتب المقطم نقلا عن الوكالة الانكليزية في بيان أسباب الاستقالة يوم ورد الخبر يخال له أن الرجل لم يبق بينه وبين حشرجة الموت الا أن يودع بسلام

فما له قد وقف أكثر من ثلاثين دقيقة ينزل الصواعق من فمه على مصر والمصريين وينذرهم بأنه سيقعد فى انكلترا لخصومه هنا وهناك بالمرصاد. ماله كان يمشى في بهو الاوبرة يمينا وشمالا كما يمشى الممثل القدير متكبراً متجبرا مختالا غضوبا وصوته فى بعض المواضيع يكاد يسقط العرش على الفرش

ماله وهو ينادي بأن الحركة الفكرية الموجودة فى مصر الان مفتعلة لا تستحق شيئا من العناية والاحترام — يناشد كل الاوربيين في مصر ويدعوهم الى قوة الاتحاد ليقاوموا هذه الحركة ويخفوا صوتها من الوجود

ماله وهو يظهر الثقة التامة بخلفه السير غورست يكاد يقيم نفسه عليه وصيا

يحذره كل الحذر أن يحيد عن خطته يمنة أويسرة كانما خلفه سيبق كوا حد من النظار المصريين يحركه كالآلة بين يديه وهو فى انكلترا كما كان يحركهم وهو فى مصر

ما كان أغنى اللورد عن كل هذا التفاعل الغضبى الذى بدا على كل كلمة قالها في خطبته حتى قد انقلب عن موقفه ولسان حاله يقول

وتجلدي للشامتين أريهمو — انى لريب الدهر لا أتضعضع

فسبحان الذى لا يزول ملكه سبحان العلى القهار مقلب الليل والنهار

(المؤيد فى ٢٤ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ٧ مايو سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٥٧)

الرأي العام المصرى

وخطبة اللورد كرومر

ورد على ادارة المؤيد كثير من الرسائل البرقية والبريدية من أنحاء القطر المصرى مستحسنة لرد المؤيد على خطبة جناب اللورد كرومر وباستقصائها يطول المقام فنقتصر منها على ما يأتي

هدية من أحمد نجيب الجواهرجي

للمؤيد

تذكارا لمقالة ٧ مايو سنة ٩٠٧

« هذه الاسطر الثلاثة قد كتبت على دواة من الفضة بقلم ذهبي وبجانبها أقلامها وختامتها ورمليتها ونشافتها كلها من الفضة المموهة بالذهب »

فى صباح هذا اليوم زارنا حضرة الفاضل اسماعيل أفندى كامل شريك حضرة عزتلو السرى الوجيه أحمد بك نجيب الجواهرى الشهير ومعه علبة كبيرة من الحرير المخمل وبداخل هذه العلبة دواة زوجية ذات أدوات كاملة من الفضة المموهة بالذهب على ما وصفنا ومعها الكتاب الآتى

مصر في ١٢ مايو سنة ٩٠٧

سعادتلو أفندم

ان ماأظهرتموه من صدق الوطنية والاخلاص فى خدمة الامة بمقالتكم الشائقة رداً على تلك الخطبة المشهورة قد جعل لكم المقام الاعلى في نظر الامة وبصفتى أحدأفرادها وددت أن أشترك مع الامة في اظهارعواطفها نحوكم فأقدم لسعادتكم هذه الدواة وأدوات الكتابة تذ كاراً لدفاعكم الشريف ولوأنها قليلة بالنسبة لمقامكم السامى ولكن ثقتى بكرم أخلاقكم جعل لى العشم فى قبولها واستعمالها لمحرراتكم الشريفة

وكان بودى أن أتشرف بتقديمها لسعادتكم شخصيا ولكن لحضورى في محل أشغالى متأخراً لكثرة أشغالى الخارجية قد أنبت عنى حضرة اسماعيل أفندى كامل ليقوم بأداء هذا الواجب المقدس وتفضلوا بقبول فائق احترامى ومعذرتى

أحمد نجيب جواهرجي

(المؤيد في ٢٩ ربيع الاول سنة ١٣٢٥ ـ ١٢ مايو سنة ١٩٠٧عدد ٥١٦١)

صحيفة سوداء هنا بيضاء هناك

لذات كاتب جليل وشاعر من شعراء اسماعيل

أيامكم أم عهد اسماعيلا ... أم أنت فرعون يسوس النيلا
أم حاكم فى أرض مصر بأمره ... لاسائلا أبداً ولا مسؤولا
يامالكا رق الرقاب بيأسه ... هلا اتخذت الى القلوب سبيلا
لما رحلت عن البلاد تشهدت ... فكأنك الداء العياء رحيلا
أوسعتنا يوم الوداع اهانة ... أدب لعمرك لايصيب مثيلا
هلا بدا لك أن تجامل بعد ما ... صاغ الرئيس لك الثنا اكليلا
أنظر الى أدب الرئيس ولطفه ... تجد الرئيس مهذبا ونبيلا

***

في (ملعب) للمضحكات مشيد ... مثلت فيه المبكيات فصولا
شهد (الحسين) عليه لعن أصوله ... وتصدر (الاعمى) به تطفيلا

جبن أقل وحط من قدر بهما ... والمرء ان يجبن يعش مرذولا
لما ذكرت به البلاد وأهلها ... مثلت دور مماتها تمثيلا
أنذرتنا رقا يدوم وذلة ... تبقى وحالا لاترى تحويلا
أحسبت ان الله دونك قدرة ... لايملك التغيير والتبديلا
الله يحكم فى الملوك ولم تكن ... دول تنازعه القوى لتديلا
فرعون قبلك كان أعظم صولة ... وأعز بين العالمين قبيلا
اليوم أخلفت الوعود حكومة ... كنا نظن عهودها الانجيلا
دخلت على حكم الوداد وشرعه ... مصراً فكانت كالسلال دخولا
هدمت معالمها وهدت ركنها ... وأضاعت استقلالها المأمولا
قالوا جلبت لنا الرفاهة والغنى ... جحدوا الاله وصنعه والنيلا
وحياة مصر على زمان محمد ... ونهوضها من عهد اسماعيلا
ومدارسا يبنى البلاد حوافلا ... حظ الفقير بهن كان جزيلا
ومعاقلاً لاتنمحى آثارها ... وجيوش ابراهيم والاسطولا
وجداولا بين الضياع جواريا ... تذر اليباب مزارعا وحقولا
ومدائنا قد خططت وطرائقا ... كانت حزونا فاستحلن سهولا
والقطن مزروعا بفضل محمد ... في مصر محلوجا بها مغزولا
قد مد اسماعيل قبلك للورى ... ظل الحضارة في البلاد ظليلا
ان قيس في جود وفي سرف الى ... ماتنفقون اليوم عد بخيلا
أو كان قد صرع المفتش مرة ... فلكم صرعت بدنشواي قتيلا
لاتذكر الكرباج فى أيامه ... من بعد ما أنبت فيه ذيولا
وامدح قصوراً شادهن بوازخا ... قد أصبحت مأوى لكم ومقيلا
* لو أنه لم يبنها لتخذتمو ... منها المضارب والخيام بديلا
كم منة موهومة أتبعتها ... منا علي القطن الخبير ثقيلا
فى كل تقرير تقول خلقتكم ... أفهل ترى تقريرك التنزيلا
هل من نداك على المدارس أنها ... تذر العلوم وتأخذ «الفوتبولا»

أم من صيانتك القضاء بمصر أن … تأتي بقاضي دنشواي وكيلا
أم هل يعد لك الاضاعة منة … جيش كجيش الهند بات ذليلا
أنظر الى فتيانه ماشأنهم … أوليس شأنا في الجيوش ضئيلا
حرمتهم أن يبلغوا رتب العلي … ورفعت قومك فوقهم تفضيلا
فاذا تطلعت الجيوش وأملت … مستقبلا لم يملكوا التأميلا
من بعد مازفوا لادوردالعلى … فتحا عريضاً في البلاد طويلا

* * *

لو كنت من حمر الثياب عبدتكم … من دون عيسى محسنا ومنيلا
أو كنت بعض الانكليز قبلتكم … ملكا أقطع كفه تقبيلا
أو كنت عضوا في الكلوب ملأته … أسفا لفرقتكم بكا وعويلا
أو كنت قسيساً يهيم مبشرا … رتلت آية مدحكم ترتيلا
أو كنت صرافا بلندن دائنا … أعطيتكم عن طيبة تحويلا
أو كنت تيمسكم ملأت صحائفي … مدحا يردد في الورى موصولا
أو كنت في مصر نزيلا جاحدا … سبحت باسمك بكرة وأصيلا
أو كنت (سريونا) حلفت بانكم … أنتم حبوتم بالقنال الجيلا
ما كان من عقباته وصعابه … ذللتموه بعزمكم تذليلا
عهد الفرنج وأنت تعلم عهدهم … لا يبخسون المحسنين فتيلا
فارحل بحفظ الله جل صنيعه … مستعفيا ان شئت أو معزولا
واحمل بساقك ربطة في لندن … واخلف هناك غراي أو كمبيلا
أوشاطر الملك العظيم بلاده … وسس الممالك عرضها والطولا
انا تمنينا على الله المنى … والله كان بنيلهن كفيلا
من سب دين محمد فمحمد … متمكن عند الاله رسولا

كلمة في الرق

في الاسلام

دهشنا كما دهش غيرنا من المسلمين العارفين بدينهم لما قاله جناب اللورد كرومر في الاسلام . ولو كان جناب اللورد من عامة الناس لما بالينا بقوله ولكن لما لجنابه من المنزلة السامية والعقل الصائب والعلم الواسع (وان كان ذلك فى السياسية لافى الدين) اهتم المسلمون بمقاله وأخذوا يبينون مافيه من الخطأ والبعد عن الحقيقة . وقد رأيت أن أضم الى ماقالوه كلمة أخرى في الرق فى الاسلام لان خطأ جنابه في هذا الموضوع أقل ظهوراً من خطئه في غيره من مسائل الدين الاسلامى

ولا أريد أن أبين فى هذه المقالة الفرق بين الرق عند المسلمين وبينه عند غيرهم ولا ماأتت به الشريعة الاسلامية من الاوامر القاضية بالاحسان الى الارقاء واكرامهم وعدم تكليفهم بما لايطيقون والمساواة بيننا وبينهم في نظر الدين واطعامهم مما نطعم والباسهم مما نلبس وتزويجهم وعدم دعائهم بما يسيؤهم من الالقاب واعتبارهم انهم اخوان لنا الى غير ذلك مما جاء به القرآن الشريف والسنة النبوية حتى صاروا فى حالة فى الشرق لاتخطر على بال أهل الغرب وبلغوا أعلى مناصب الرئاسة وكانت كلمتهم نافذة وأمرهم مسموعا حتى هابتهم الاحرار وخشوا بأسهم . ومن عرف أخبار مثل بلال المؤذن واحترام الرسول صلى الله عليه وسلم له وطالع تاريخ المماليك بمصر واطلع على حال الخصيان (الاغوات) في الدول الاسلامية تحقق له صدق ماأجملناه هنا وأوضحه غيرنا بما نشر حديثًا في الجرائد

ولا أريد أن أبين أن جل ماوقع فى البلاد الاسلامية من الاسترقاق واختطاف الناس للتجارة فيها والتسرى بالفتيات المختطفات الى غير ذلك مما هو معروف كان مضاداً لمبادئ الاسلام الشريفة وان كانت معاملتهم بخلاف مايتوهمه الغربيون بسبب ماعهدوه في بلادهم

وكذلك لاأريد أن أبين أن الاسترقاق كان فاشياً في جميع الامم غير الاسلامية من قبل الاسلام ومن بعده وأن الارقاء كانت تعامل عند تلك الامم معاملة الحيوانات

البهم و بقساوة تقشعر منها الجلود وتنفطر منها القلوب

كل ذلك لاأريد أن أبينه هنا لان غيرنا قد كفانا مؤنة البحث فى هذه المسائل وانما الذى أريد أن أبينه هو أن الاسلام هو الشريعة الوحيدة التى آتت من بين الشرائع المعروفة لنا لتبطل الرق من العالم وأن الاوروبيين لايزالون الى الآن يبيحون ضربا من ضروب الاسترقاق وهو معمول به قانونا في بلادهم : فأقول — جاء الاسلام والناس مستعبدون فى جميع البقاع على أشنع الاحوال فرق لحالهم كما هو شأنه لجميع الضعفاء وأخذ في تحريرهم وذلك بوضع القواعد الآتية :—

(١) افهام المسلمين أن فك الرقاب من أعظم القربات عند الله قال تعالى ٩٠:٧-١٨ (ألم نجعل له عينين ولسانا وشفتين وهديناه النجدين فلا اقتحم العقبة وما أدراك ما العقبة فك رقبة) الى قوله (ثم كان من الذين آمنوا وتواصوا بالصبر وتواصوا بالمرحمة أولئك أصحاب الميمنة) وقال ٢ : ١٧٧ (ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفي الرقاب وأقام الصلوة وآتى الزكاة والموفون بعهدهم اذا عاهدوا والصابرين في البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون)

(٢) جعل عتق الرقاب كفارة لسيئات كثيرة مذكورة فى القرآن الشريف و بعضها كثير الوقوع فاش بين الناس كالحنث فى الايمان قال تعالى ٥ : ٨٩ (لايؤاخذكم الله باللغو فى أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الايمان فكفارته اطعام عشرة مساكين من أوسط ماتطعمون أهليكم أوكسوتهم أوتحرير رقبة)

(٣) أمر المسلمين بعتق من يريد ذلك من الارقاء اذا دفع لسيده قدرا من المال يتفقون عليه وأوجب عليهم اعانته وامداده بالمال حتى يحصل على حريته قال تعالى ٢٤:٣٣ (والذين يبتغون الكتاب مما ملكت أيمانكم فكاتبوهم ان علمتم فيهم خيرا وآتوهم من مال الله الذى آتاكم)

(٤) أوجب على أولياء الامر أن يأخذوا مالا من الاغنياء (أى الزكاة) ليصرف بعضه فى تحرير الرقاب اما باعانة المكاتبين السابق ذكرهم أو بشراء أرقاء واطلاق سبيلهم

قال تعالى ٩ : ٦٠ (انما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم)

فهذه بعض قواعد مما وضعه الاسلام لتحرير الارقاء حتي يزول الرق من بين المسلمين بالتدريج ولم يلزمهم بتحريرهم دفعة واحدة لأنهم كانوا اذ ذاك أمة ضعيفة قليلة العدد فقيرة وكان العبيد في أيديهم كالمال عندنا الآن وكانوا يعينونهم في جميع الاشغال. ويساعدونهم على القيام بأعباء هذه الحياة وخصوصا في تلك الازمان التى لم يكن فيها آلات البخار والكهرباء وغيرها مما نتعاون به الآن . فلو حررهم المسلمون مرة واحدة دون سائر الامم لازدادوا ضعفا ووهنا ولوقعوا في الافلاس والشقاء دون غيرهم وكان المسبب لذلك دينهم فلذا اقتضت الحكمة الالهية أن يكون تحريرهم تدريجيا بما وضعته لهم من الاصول التى ذكرنا بعضها هنا

هذا مايتعلق بالارقاء الذين كانوا موجودين بالفعل في ذلك الزمن . ولم يأمر القرآن المسلمين بادخال حر في دائرة العبيد الا فى حالة واحدة وهى الحرب مع قوم لم يؤمن أذاهم من غير المسلمين واعتدوا عليهم . فأمروا أن يسترقوهم موقتا الى أن تضع الحرب أوزارها ويقهروا عدوهم فاذا أمنوا شره واطمأنوا من جهته لايجوز لهم ان يبقوا أحداً منهم طول حياته رقيقا بل يجب عليهم أحد أمرين لاثالث لهما (١) اما أن يطلقوا سراحهم لوجه الله تعالى (٢) واما أن يستبدلوهم بمن أسرهم العدو من المسلمين أو يأخذوا منه مالا في مقابلة فك أسرهم . ولذلك قال تعالى ٤٧ : ٤ (فاذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب حتى اذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق فاما منا بعد واما فداء حتى تضع الحرب أوزارها) وهذه هى الآية الوحيدة في الامر بالاسر من جديد . ويجب علينا معاملة الاسرى مدة أسرهم المحدودة بما اشتهر به الاسلام من الاحسان والرفق واللين قال تعالى ٤ : ٣٦ (وبالوالدين احسانا وبذى القربى) الى قوله (وماملكت أيمانكم) وقال تعالى أيضا ٧٦ : ٨ و ٩ (ويطعمون الطعام على حبه مسكينا ويتيما وأسيراً انما نطعمكم لوجه الله لانريد منكم جزاء ولا شكورا)

ثبت مما تقدم أن الاسلام أتى بما يحرر الارقاء الموجودين بالفعل تدريجيا ولم يأمر بالاسترقاق من جديد الا فى حالة واحدة أوجب فيها على المسلمين تحريرهم بعد قليل امامنا

واما فداء . فقل لى بأبيك اذا اتبع المسلمون أوامر دينهم هذه ووافقهم عليها الامم الاخري فهل يبقى فى الارض رقيق واحد ؟؟ وهل هذه الاصول تعيد الرق من جديد كما قال جناب اللورد كرومر ؟

فهذا هو ديننا كما نفهمه وهذه هى شريعتنا وكل ماخالفها ليس من الاسلام في شئ وانما منشؤه الجهل وعدم فهم الدين على حقيقته . فياجناب اللورد أى شئ رأيت فيه حتى ظننت أنه سبب تأخرنا ؟ وهل سمعت بدين غيره أتى بما أتي به الاسلام ؟ هاهى المسيحية كتبها بين أيدينا نقرؤها كثيراً من أولها الى آخرها ولا نجد فيها نصا واحدا في الامر بفك الرقاب . فاذا قلنا ان سبب تأخر الاوربيين منذ اعتناقهم لها الى قبيل الوقت الحاضر كان ناشئا عنها فهل لاتسموننا متعصبين ؟

يقولون ان المسيح عليه الصلاة والسلام لم يأت ليسن للناس شرائع مدنية فبماذا نراه يحرم الطلاق والتزوج بالمطلقة وتعدد الزوجات كما يزعم بعضهم ولانجد له ولا لحوارييه كلمة واحدة في تحرير العبيد وفك قيودهم مع أنه أمر أجدر بالعناية و به يفتخرون علينا ولولا تأخرنا الذي سقطنا فيه بسبب ترك ديننا لكنا نحن القائمين به . ولكنى أستغفر الله من التعرض للخوض فى أديان الآخرين . وان كنا لسنا الا عن ديننا مدافعين . ولنرجع الى ما كنا فيه

الرق ضروب كثيرة أهونها ماعرف بين المسلمين . ويظن الكثير من الناس أنه لم يبق له أثر بين الاوروبيين. والذى نراه نحن أنه لايزال قائما بينهم في صورة أخرى فما هى تلك الصورة ؟ تلك هى حالة المسجونين المحكوم عليهم بالاشغال الشاقة المؤبدة أوالمستطيلة. ومما يؤيد هذه الفكرة أن بعض الامم القديمة كانت تعاقب في أحوال مخصوصة من يسرق باسترقاقه كما في الشريعة الموسوية

ولنبين لك الآن حالة الرقيق عندنا وحالة المسجون عند الاوربيين وان كانت السجون الآن قد بلغت في بعض البلاد منتهي الرقى كما بلغت ذلك أيضا سجوننا المصرية

الرقيق عندنا يأكل مما نأكل منه — والمسجون لايأكل الا أشياء مخصوصة

الرقيق عندنا يلبس مما نلبس والمسجون لايلبس الا نوعا مخصوصا

الرقيق عندنا ينام كما ننام ـ والمسجون لاينام الا فى وقت مخصوص وعلى أشياء مخصوصة.
الرقيق عندنا يشتغل بقدر طاقته ـ والمسجون قد يكلف ما لا يطيق
الرقيق عندنا مختلط بنا و بأهله ان وجدوا ـ والمسجون لايقابل قريبا له أو خليلا الا فى وقت معين
الرقيق عندنا يتزوج ويتصرف فى أمواله - والمسجون لايرى النساء ولا يتصرف في ماله ولايراه
الرقيق اذا مشى لايمتاز عنا - والمسجون لايمشي الاوفي يديه أورجليه سلاسل الحديد.
الرقيق عندنا محترم وقد يصل الى درجة الملوك ـ والمسجون مهان ولا ينادى الا يامذنب ـ

فهذه جملة من الفروق بين الرق عندنا و بينه في صورته الاخرى عندهم فأيهما أرحم بالجنس البشرى . ولا ندرى لماذا يعيبوننا به ولايعيبون أنفسهم بما هو من أشد ضروبه: ان كان الرقيق عندنا تحت تصرف أفراد المسلمين فالمسجون تحت تصرف افراد السجانين وكما يعاقب السجان اذا خرج عن حده في معاملة المسجون كذلك يعاقب المسلم اذا خرج عن حدود الشريعة فى معاملة رقيقه بل قد يفك من رقه لاقل اساءة كضربه كما دلت على ذلك السنة النبوية . نعم هناك فرق واحد بين الرقيق والمسجون وهو أن الرقيق عبد لفرد من أفراد الامة . والمسجون عبد للامة ولكن هذا فرق وهمى ويغتفر لما للرقيق عندنا من الحقوق والمزايا التى لايحلم بها المسجون ومع كل ذلك فنحن لانحب اعادة الرق. وليس الرق من ديننا .

فهذا ياقوم ماأردت بيانه في هذه المقالة الصغيرة وأرجو ياجناب اللورد أن لاتتسرع في الحكم على دين هو أرقى الاديان الا بعد دراسته وفحصه كما تدرس المسائل السياسية التى اشتغلت بها والسلام على من اتبع الهدي امضاء .

أبقراط



